د. نهى جميل الحاج

دافو

دافو

د. نهى جميل الحاج

2016

الإهداء

إهداء

إلى الثائر، الهادر، الحر بلا قيود!

إلى هؤلاء الذين قاوموا حتى النهاية

عند الشطآن المتآكلة جئنا نرفع الدعاء المبتور

عل السجين خلف عيون السد يعود!

نهى الحاج

وجع

لو تدري أن الحزن النوبي ثقيل
وأن الليل النوبي طويل وطويل
يمتد كأحزان التربال
وأن النيل حزين يذرف دمع الماء على الشلالِ
ويسكبه من ساقية غنت للدنيا موال
الليل طويل يا مولاي
واللحن حزين يا مولاي
يتدفق من أوتار الطمبور النوبي
فاسكب في كأس الأحزان قليلًا من صهباء "الدكاي"
علّيأمسح عني أحزانًا ترقد فوق قفاي
يوجعني صوت الطمبور النوبي ويؤلم قافيتي
يترك وقرًا في القلب ووخزًا في أعصاب الشعر
والنخل تمايل عشقًا أرخى سعف الحب
ضفائر فوق جروف النيل
وداعبها موج شفاف
شكَّل من أركان القلب ضفاف

الشاعر النوبي نور الدين منان

(1)

انقطع إرسال التلفاز فجأة، حتى القناة الوحيدة التي كانت تربطهم بالشمال انقطعت، كانوا متحلقين حوله كالفراش حول المصباح الوحيد المتبقي وسط هذا الليل، علا صوت الشيخ في وهن، يستفسر عن هذا الانقطاع المفاجئ.

تحرك الشاب الخفيف يتفقد التوصيلات، اعتلى الدرج يتفحص الطبق المثبت أعلى السطح، وعاد ليؤكد أن التوصيلات سليمة.

إذن، فالأنباء صحيحة!

عاد الشيخ يدور بعينيه في وجوه الحاضرين، الذين يكاد الهم يفترسهم، افترشوا المندرة من قبل العصر، اليوم كانوا على موعد مع الأمل النهائي، وهاهو الإرسال ينقطع!

علت الهمهمات وقطعها صوت أحمد بشر: ننتظر إذن حتى الصباح؛ فربما تصلنا أخبار مع العائدين.

هموا بالمغادرة، فهمهم الشيخ: لا حول ولا قوة إلا بالله!

انصرفوا وعلى وجوههم نفس الحيرة التي أتوا بها.

تمدد الحاج صالح على العنجريب، وقد رمى الليل بظله الثقيل على روحه المتعبة. تتراقص أشباح المصباح المعلق فوق الجدران، والدقائق تمضي بطيئة، تُرى، هل حقًّا انتهى كل شيء؟

بيووو.. بيووو.. انطلقت كالسهم تخترق أذن الشيخ!

هب واقفًا من نومه المتقطع، ليرى زوجته وقد انتفش شعرها تولول وتصرخ: بيووو...

الشمس لما تشرق بعد، أصوات الأقدام تقترب من الباب، والصراخ يملأ القرية. امتلأت المندرة من جديد، فقد تجمعت القرية كلها حول الدار، الرجال في جلابيبهم البيض، النسوة بملابسهن السود، الأطفال أفزعهم الصراخ فقاموا من نومهم يتشبثون بأمهاتهم، الصغير منهم لا يعلم ما سر هذه الجلبة، والكبير تدور عيناه تبحثان عن أقرانه في خوف، بعد أن سمع كلمة الرحيل مرارًا! ولماذا يرحلون؟

همهمات وعيون متسائلة، أناس لا يعلمون شيئًا سوى أنهم على وشك التشتت من جديد، أو الهلاك والموت البطيء.

تكلموا، تهامسوا، علا الصياح، احتدوا، ثم تكوموا صامتين إلا من عيون تشبثت بوجه الشيخ.

ساد الصمت طويلًا، الهواء ثقيل، والشيخ صامت، والكل مترقب، يطلقون الزفرات بين حين وحين فتقطع الصمت!

ثقل هواء الغرفة أكثر، ظلوا يتوافدون على البيت حتى امتلأت المندرة والساحة الممتدة حول الدار، أجساد متكومة تنتظر الحكم عليها، الشمس بدأت تعلو قليلًا وهواء الصيف اللافح زاد حلوقهم جفافًا، ظلوا هكذا حتى تحرك الشيخ بعد طول انتظار.

استند الحاج صالح على حافة العنجريب، كمن سيلقي خطبة في الجموع المترقبة!

شيخ يقترب من التسعين بطوله الفارع وانحناءة ظهره البسيطة، اعتدل فزاد هيبة بعمامته البيضاء الناصعة، ولحيته الضاربة ببياضها وسط سمرة وجهه النحيف.

عدل وضع نظارته الطبية، وأشار للجمع الصاخب بالسكوت: (ماسكاجناه)! ردوا التحية هامسين؛ فما يزالون تحت وطأة الأخبار المتواترة.

علا صوت من أقصى اليمين:

– بشرنا يا شيخ صالح، الله يبشرك بالجنة.

ابتلع الشيخ ريقه بصعوبة، لم يستطع أن يراوغ أكثر من ذلك، فهو عمدة القرية، والكل ينتظر قراره، رفع صوته الجهوري رغم ارتعاشه، أعلن على الجمع ما كانوا يخشون:

لن نبقى يا قوم، النهر الصاعد للشمال قد جف، القرى جاعت، نفد الزاد، وكل الأخبار تؤكد لزوم الرحيل، فشلت المفاوضات الأخيرة واحتجز السد الأصم ما تبقى من الماء الصاعد إلينا، أغلقت الحبشة عيون سدها، ولم يتبق سوى الماء العطن، فلم المكوث وسط هذا الموت الحتمي؟

علا الصياح مجددًا، وارتفع عويل النسوة والأطفال، وتجلى قهر الرجال والشيوخ! كأنما الوجوه شاخت فجأة!

أي رحيل؟ إلى أين والموت يعشش شمالًا وغربًا وشرقًا؟!

رحيل جديد وشتات آخر؟!ألم يكتف ذلك النهر من بعثرتنا؟!

ألم يبتلع في السابق أرضًا كنا نحسبها صامدة، والآن عاد ليمارس ألعابه مجددًا؟ صبوا لعناتهم على النهر، على الأرض والوطن، صرخوا مرة، وتضرعوا للسماء مرات! جفت حلوقهم وهبت ريح ساخنة، سَموم ككل ما حولهم.

ربط الرجال عمائمهم حول خصورهم، ثم قاموا يمارسون طقوس المأتم، وارتكز الشيوخ على عصيهم يدورون مرددين: ما دايم إلا الله.

علا صراخ النسوة: بيووو، بيووو، أهلن التراب فوق الرؤوس، ضربن بالأقدام الأرض التي لفظتهن مجددًا!

أقام الجميع مأتمًا يودعون فيه النهر الذي ابتلعهم سابقًا، وعاد يدير ظهره موليًا، تاركًا أرضًا جدباء، وموتًا لا فرار منه.

استفاقوا من مأتمهم على صوت الأذان، ارتفعت الشمس تلهب رؤوسهم، فانسحبوا لبيوتهم منهكين، الكل يفكر، ولا أحد يعرف إلى أين سيرحل!

علا صوت الشيخ مجددًا: ننتظر القادم من الشمال اليوم، عله يأتي بجديد!

انسحبوا يلملمون أحزانهم، ويتهامسون فيما بينهم: ننتظر الخبر، لعله خير.

حل الظلام سريعًا، جثم كتلك الجبال المحيطة، ثقيلًا بهواء الصيف الخانق!

افترشوا المصاطب بعد صلاة العشاء، الكل ينتظر القادم لعله يهبط عليهم اليوم، السيارات قليلة بعد أن نفد الوقود، والطريق العام أصبح خاويًا إلا من بضعة أنوار متقطعة لعربات الراحلين.

طال الوقت وانتصف الليل، ظل الوجوم سيد الموقف، فما الذي يمكن أن يُقال!

قطع الصمت صوت حسين صالح، ابن الشيخ يدعوهم لبيت العمدة، فهمهموا: لعله خير.

لم يكن هذا الشيخ صالح، الرجل الذي عرك الحياة تسعين عامًا! كان يخفي وجهه بين يديه المعروقتين، أسدل طرف عمامته حدادًا.

اجتمع الرجال وجلسوا بين يديه، على يمينه إسماعيل شعبان، الذي لم ينفض غبار السفر بعد، يلهث كأنه قطع الطريق من الشمال للجنوب عدوًا!

حدق الجميع وأطالوا النظر للشيخ عله يرحم حيرتهم!

أشار الشيخ للقادم، تلعثم الشاب قليلًا، ثم أطلق سهامه:

– يا قوم لا فائدة من المكوث، الجفاف ضرب كل الأراضي، الجميع يرحل، البقاء معناه الموت، والحكومة فشلت في المفاوضات، الموت قادم لا محالة إن لم نسرع.

– نرحل؟

–إلى أين؟

– الشمال؟

– الجنوب؟

–سألحق بأخي غربًا!

–لالا.. الجنوب أهلنا وناسنا!

تخبطوا، احتدوا، علا الأصوات وحمي النقاش!

رفع الشيخ رأسه أخيرًا، بعينين تملؤهما الدموع، خلجات وجهه المرتعش وصوته الواهن أسكت الجميع، تحركت شفتاه بلا كلمات، وعاد ليجمع الحروف، تماسك قليلًا قبل أن ينطق:

لا فائدة من العناد، لا بد من الرحيل، كنت قد آثرت البقاء، فلا طاقة لشيخ مثلي على السفر، ولكنه أمر الله: هلمَّ يا أولادي!

الشمال أوالغرب كلها بلاد الله!

الأفضل أن نسرع قبل أن يضربنا الجفاف، احملوا ما تستطيعون حمله، والباقي عوضنا على الله.

(2)

آخر صباحات القرية! البيوت خلايا نحل، الكل يجمع ما يمكن حمله، والذكريات تنساب بلا توقف: العجائز يتجرعن مرار الرحيل مجددًا! الشيوخ واجمون، والأطفال لا يدركون معنى الرحيل، هم فقط عرفوه عندما سافر بعض الآباء بحثًا عن الرزق، حاملين الألعاب والملابس عند عودتهم.

ولكن لمَ يجب عليهم أن يتركوا بيوتهم ومدرستهم، وحواري القرية وألعابهم في الطرقات؟ لم يفهموا ولم يسألوا! فلا أحد يتكلم، الجميع صامتون كأنهم في حداد طويل.

جمعوا أشياءهم على عجل، زاروا المقابر وترحموا على أمواتهم، سقوا الصبار المزروع عند شواهد القبور، قرؤوا الفاتحة وبكوا كثيرًا.

في الساحة الممتدة أمام المسجد تجمعوا، افترشوا الأرض بجانب حقائبهم القليلة، خلت البيوت، تركوا كل شيء وراءهم! كيف سيحملون المتاع؟

في رحيلهم الأول حملوا كل شيء: أثاثهم البسيط، عناجريب، صناديق خشبية، الأبراش وسلال الخوص والأزيار، أبقارهم وأغنامهم، والآن سيرحلون هاربين من الموت!

هاهم مجددًا يرحلون تاركين الأرض، النوبة الحزينة الغارقة منذ سنوات، والأرض الجديدة الجدباء المقفرة.

علا صوت من المئذنة، لم يكن الوقت وقت صلاة، إنه الشيخ فضل إمام المسجد، يخطب آخر خطبة من فوق المنبر المتهالك، بسمل وصلى على

الحبيب، خطبة بلا صلاة ولا تكبيرات، ليس عيدًا، ولا يوم جمعة! أخطبة وداع هي!

جلس القوم تسح دموعهم، يتحسسون الأرض، يغترف الواحد منهم حفنة تراب ويتشممها، أكثر من خمسين عامًا مضت، بعد الرحيل الأول، هذه أيضًا أرضهم، هناك فقدوا أرض المولد، وهنا سيفقدون أرض اللجوء.

انتحب الشيخ فضل، كرر: اصبروا واحتسبوا!

تبادلوا النظرات، ألا يوجد غير الصبر؟!

قديمًا صبرنا حتى ابتلع النهر أرضنا، والآن نصبر حين يولي دبره!

قديمًا نعم الشمال بالخير، وأخرجونا مكرهين، والآن ندفع الثمن ثانيًا، الصبر، الصبر يا رب!

تشاوروا كثيرًا: الشيخ صالح، أحمد بشر، الشيخ فضل، تأزمت الأمور، تدخل إسماعيل شعبان القادم من الشمال توًّا!

درسوا الخيارات المتاحة، الجفاف ضرب معظم البلاد، لم يعد باستطاعتهم البقاء أكثر من ذلك، سيهلك الناس!

تعاونوا في الأشهر القليلة الماضية، واقتسموا اللقمة والزاد، ولكن لم يبق الكثير!

توقف التجار عن المجيء، الوقود انتهى، والبضائع شحت، والماء أصبح يباع بعد أن كان يجري تحت أقدامنا هناك في الجنوب!

الأمر جدي هذه المرة، تأجل الرحيل كثيرًا، ولكن لا فرار من أمر الله.

تلاحم مجاميع من البشر، تعانقوا كجسد واحد، تحلقت النسوة في دائرة كبيرة، دائرة من الصمت، حتى الصبية تركوا اللعب وتكوموا في حجور أمهاتهم، يديرون البصر في الوجوه الواجمة، يمتد بصرهم لصف الرجال فوق المصاطب القريبة، فيقرؤون نفس الهم المرسوم، وإن بدا الرجال أكثر جلدًا.

أخذوا يدورون دورة أخيرة في حواري القرية، يتأملونها، كأنهم يحفرونها في ذاكرتهم، كانوا يتحسسون الأبواب والجدران والمصاطب، يمررون أياديهم المعروقة فوق تجاعيد الجدران، يشتمون بعضًا من رائحة الصندل المخبأ في الأثناء، بعضهم انحنى وحمل بعض تراب الأرض، ولفه في خرقة دسها في جيبه.

بدت البيوت ذات الحيطان المزركشة بالألوان والتصاوير كئيبة حزينة! ربما كانت تدمع هي أيضًا لفراق الراحلين!

أولا تشتاق لنا الأرض كما نشتاق لها؟ أولا تحنُّ لدوس أقدامنا؟

بدأ الرحيل، حطموا أخيرًا حاجز التردد والخوف. لا مفر: أحمد بشر وإسماعيل شعبان، أرادا الرحيل للشمال، بحثا عن سيارة بصعوبة، فاستغل السائق حاجتهم وضاعف الأجرة.

حملوا أمتعتهم فوق السيارة، وانحشروا هم وزوجاتهم! صرخ إسماعيل في ولده حسن، الذي تعلق بصاحبه عوض، بكى الصغيران، وانتزع الأب ابنه بصعوبة.

هرولت جميلة خلف السيارة بصعوبة وهي تلتقط أنفاسها، وضعت يدها فوق بطنها المنتفخ بجنينها!أرادت أن تلحق بزوجها الذي سافر منذ أشهر، انحشرت معهم، زمجر السائق يريد زيادة أجرته، فوافقوا مكرهين، انطلقت

السيارة تنهب الأرض، مخلفة سحابة من الغبار حجبت عنهم دموع المودعين، الذين أخفوا دموعهم وأطلوا بنظرة أخيرة يودعون أهلهم وبيوتهم، يودعون الأرض على أمل العودة، صاعدين للشمال، نحو مجهول، وأي مجهول!
تفرقوا، بدأت الدائرة تتقلص، انسحبت النسوة وراء الأزواج، يجررن أطفالهن، يلحقن بالعربات الصاعدة للشمال!
السائقون يغالون في الأجرة، وهم يدفعون قروشهم القليلة، نحيب هنا وعويل هناك، سحابة الغبار تعلو، والقلوب تنفطر للرحيل.

(3)

لم تخل ديوانية الشيخ صالح من توافد الأقدام. فضيلة تروح وتجيء بنشاط لا يتناسب مع سنين عمرها الذي تعدى الثمانين، بدا البيت – رغم براحه – كئيبًا، الكل يتحرك في سرعة!
زينب زوجة حسن تنهر ابنتها فاطمة في عصبية: لملمي الثياب، صفي المواعين في الشنطة الكبيرة!
تصعد الدرج للسطح، تحتد على عليّ، ثم تجلس تنتحب وتسح دموعها، ويعلو صوتها.
يصيح حسين: اسكتي يا ولية، بطلي نواح!
تمسح الدموع بطرف جرجارها، ولا ترد.

الشيخ صالح يجلس على كرسيه بلا حراك، يتابع بنظرات منكسرة، وهم كبير، يتساءل: أيحتمل شيخ مثلي الرحيل!؟ هل أبقى هنا؟ وهل ستوافق فضيلة على الرحيل بدوني؟ ستصر على البقاء معي، ستهلك المرأة إن بقيت!

يا الله، ما العمل؟ وحسين؟ هل سيوافق على تركي ويرحل؟

سأرحل إذن معهم، وإن هلكت في الطريق فهو أمر الله، ولا راد لقضائه.

المودعون لا يتوقفون عن المجيء، الكل يأتي محملًا بدموعه يذرفها فوق كتف الشيخ، وهل لهم غيره!

لقد حمل هم الصغير والكبير ثلاثين عامًا، والآن لايزال يحمل هم شتاتهم.

كان يجمعهم تحت سقف بيته، يفتح بيته للغريب والقريب، يجمعهم أول رمضان حول طبلية الإفطار، يبلون ريقهم بالتمرات والأبريج، يصلون المغرب في المسجد، وكم تصايح الرجال: لا تطول يا شيخ فضل، عايزين نلحق فطار الشيخ صالح. والآن أنى له أن يجمعهم!؟

حبس دموعه وقام متثاقلًا، ترك البيت وخرج يطوف بالبلدة، يبتسم ابتسامة أسًى وتجلد، وهو يتوجه لبيت محمود عوض، صديق طفولته الذي لم يفارقه لحظات؛ دخلا الكتاب معًا، جاوره على دكة المدرسة الابتدائية بالدر قديمًا، تخرجا في معهد المعلمين، وأكملا المشوار، يعلمان الصغار، حتى كبرا ورحل من رحل، ونسي من نسي..

إيييييييه.. دنيا عجيبة.

محمود عوض كان شعلة نشاط، أحب النوبة وبكى عند الرحيل، قاوم كثيرًا فكرة التهجير، حارب بقلمه الشمال الأناني، كتب الشكاوى، سافر كثيرًا للعاصمة يطرق الأبواب، أراد أن يلفت نظر العالم للإنسان الذي تناسوه وهُرعوا لإنقاذ الحجارة! جاؤوا من الشمال يحملون معداتهم ويرفعون الأحجار برفق، ولم يرونا ونحن ننحشر بالصنادل تحملنا لأرض غريبة مقفرة، بعيدة عن النيل والنخلات.

كان ناصريًّا بامتياز، ثم انقلب على ناصر، وكفر بالقومية والاشتراكية، وجدها بريق كلمات بلا معنًى، انهارت عند أول ضربة معول، وأول اختبار حقيقي للقومية!

أين نحن من الوطن؟ تساءل ولم يجد الجواب، اختلت الموازين والقيم برأسه، حارب وقاوم وسجن، خرج محطمًا كافرًا بالوطن، والآن يعود الوطن ليقسو عليه من جديد!

هل سيحتمل محمود ضربة أخرى، وهو القعيد الذي تجاوز التسعين، وأين يرحل وهو وحيد لا أهل ولا ولد، سأصر عليه أن يرحل معنا، نحو الجنوب، أهلنا وناسنا!

سأصر عليه، محمود الشيخ العنيد، لعله يستجيب.

(4)

خلت بيوت القرية تقريبًا من ساكنيها، أصر الشيخ صالح أن يكون آخر الراحلين، أراد كعادته أن يطمئن على الجميع، حتى في وداعهم الأخير!

دار بالحواري يحكم إغلاق الأبواب، يطمئن لإحكام النوافذ، وكأن أصحاب البيوت سيعودون، ربما.. ولم لا؟

يوم الرحيل الثقيل، ظهر الفجر متأخرًا. الشمس – رغم الصيف القوي – بدت أقل وهجًا، اعتلت البيوت الخاوية تودعها بلمسة حانية.

صعد الشيخ فوق السطح يمسح المكان بعينيه الحزينتين للمرة الأخيرة، يرحل بصره بعيدًا إلى الجنوب. يتذكر يوم الرحيل الكبير والغرق الأكبر. صنادل مسقوفة، كانت يومًا تنقل الماشية عبر النهر الصاعد، سقفوها بجريد النخل وحمّلوها بشرًا ملتاعين، تسكن الحيرة قلوبهم!

كان في الثلاثين وقتها، شابًّا يثور ما بداخله وهو يرحل، تاركًا بيته وأرضه، ونخلاته، سُباطات بلحه الخضراء، من سيجنيها عند نضجها؟ قبر جده على مرمى البصر، يالتلك الأجساد المسجاة تحت الثرى! ستكون في بطون التماسيح بعد قليل!

يا ويلي، ليتنا حملنا رفاتهم! أم تراهم آثروا البقاء بأرضهم التي لم يعرفوا غيرها؟ أجدادي لم يبرحوا النوبة إلا لبيت الله – إن قدر لهم – منغلقين حول لغة وأرض لا يجيدون فيها إلا هذه الحياة، براح ونخل وسواقٍ وشواديف، حياة بسيطة رغم الفقر ورغم التهميش.

حسين ينادي: آن الأوان إذن.

نقدوا دليلًا بشاريًّا مبلغًا كبيرًا، وابتاعوا حمارين حملوهما ببعض الأمتعة القليلة والزاد والماء، توكلوا على الله وساروا باتجاه الجنوب! رحلوا يشيعهم الحزن والهم وغموض المصير.

في الوقت ذاته، كانت هناك أنفاس وهمسات تنساب بين البيوت الخاوية، فيعود الصدى يرددها، عيون صابر تلمع وسط عتمة المكان: هل رحلوا؟

– نعم على ما أظن، ألا ترى السكون والظلام؟ يرد حسنين.

–هيا إذن، أين برعي؟

–يأتي الصوت هامسًا من الخلف، أنا هنا.

–هيا قبل أن تشرق الشمس، الليل سترنا.

– وأين الدليل؟ ألم تتفق معه على منتصف الليل؟

يجيب برعي: بلى، سنقابله هناك عند الطرف الغربي.

–هيا قبل أن يلحظنا أحد.

–يلحظنا أحد؟ هههه، وهل تبقى أحد؟ المساكين رحلوا إلى الشمال والجنوب، الحمد لله؛ لم يلحظوا غيابنا. هيا، هيا، الرحلة طويلة..

(5)

انطلقنا شرقًا نحو الصحراء، الدليل أمامنا يمشي بخطى الواثق، الصحراء أرضه منذ آلاف السنين، استوطنوا هنا وعاشوا يجوبون الفيافي بإبلهم، يتتبعون المياه والكلأ لقطعانهم، أحبوا الصحراء وأحبتهم، أما نحن فأحببنا النيل وعشنا على ضفتيه، وهانحن نضطر للرحيل بعد أن رحل هو عنا.

الشمس حارقة والحرارة تكاد تقترب من الخمسين، تكلم البشاري من خلف لثامه الأبيض الذي يغطي معظم وجهه:

– سنتجه إلى الشرق قليلًا، لن نسير في خط مستقيم للجنوب، قطاع الطرق منتشرون منذ الأزمة والقحط، يغيرون على الراحلين، سأتجه بكم قليلًا للشرق، ثم نعاود المسير.

قرأنا الفاتحة وتعاهدنا، هذا طقسهم الذي يتبعون، هم قوم انعزاليون إلى حد ما، قليلو الكلام، حريصون.

يحمل الدليل خنجرًا مخفيًّا تحت الصديري الذي يرتديه فوق جلبابه الأبيض، وتعتلي رأسه عمامة كبيرة تشبه تلك التي نرتديها ولكنها أكبر، لم ينس البشاريون فقدهم لجزء كبير من أرضهم تحت مياه السد، لكنهم استطاعوا التأقلم مع الصحراء .

الطريق وعر. الرمال تكاد تكون منعدمة، بعض الكثبان الرملية هنا وهناك، الأرض صخرية حادة، تتناثر بعض أشجار المورينجا الخضراء مبددة وحشة الصحراء القاحلة.

الصحراء تكاد تخلو من مظاهر الحياة، ومشاهد مكررة لتعريجات الصخور السوداء. بعض الأودية شديدة الانحدار، علمنا من الدليل أنها تمتلئ أحيانًا بمياه الأمطار، الأمطار هنا موسمية؛ وإن كانت قديمًا تهطل بغزارة، حدثنا عن تلك الصحراء الممتدة الأطراف كيف كانت في السابق جنانًا خضراء وبيئة مختلفة، تكسو الخضرة أرضها، وينعم ساكنوها بحياة رغدة، ثم ما لبث الجفاف أن ضربها! كل شيء يتغير، من كان يظن أن شريان الحياة بأرضي قد جف هو الآخر، من كان يتصور ذلك!

مالت الشمس قليلًا، استرحنا تحت ظل شجرة سنط تقف وحيدة، تحلقنا حول وجبة غذاء متأخر، مكونة من خبز الدوكة والجبن والبصل، جلسنا صامتين نلوك الطعام بمرارة كبيرة.

أطلق محمود صرخة فجائية، وأمسك برجله اليمنى متألمًا، هب الجميع ناحيته، انتبه الدليل، وبعين الخبير لمح حية الطريشة الطائرة تغادر بهدوء، بعد أن قفزت فجأة ولدغت رجل الشيخ.

تناول حجرًا وضرب رأسها دون أن يصيبها فارتعشت وتلوت، انتفش قرناها المدببان، وأخذت تلتف حول نفسها مصدرة كشيشًا في محاولة أخيرة لإخافتنا! حمى الدليل وجهه جيدًا وتناول حجرًا أكبر، وأصابها هذه المرة، انحنت وتثنت، وزحفت محاولة الهروب ولكنها لم تستطع، سال الدم من رأسها وسكنت أخيرًا، أخذها وطوحها بعيدًا!

امتُقع وجه محمود، تلوى على ألمه، وتقلصت عضلات وجهه حتى ظنناه يموت، قام الدليل بربط الساق المصاب فوق موضع العضة، أمرنا بإشعال حطب على وجه السرعة، فقام حسين مسرعًا، وجمع بعض الأخشاب المتناثرة وضمها لبعضها، أشعل فيها الثقاب، جمع بعض الأعشاب الجافة ورماها على النار فازدادت وهجًا!

أخرج الدليل خنجره من تحت الصديري، وضع نصله فوق النار حتى احمر وتوهج، أمرنا أن نمسك الشيخ جيدًا، فقام علي وحسين بذلك، ابتعدت أنا ومن خلفي فضيلة وزينب وفاطمة، أتممتم بآيات القرآن في ارتعاش!

صديق عمري بين الحياة والموت، كوى الدليل موضع العضة، دوت صرخة محمود بين جنبات الصحراء، وبدأ الليل يسدل ستائره، ثم غاب عن الوعي ينز العرق الغزير من جبينه.

اتجهت ببصري نحو الدليل مستفسرًا: هيه يا ولدي، هل سيعيش؟

– إن مر عليه الليل بسلام يا شيخ، الطريشة سامة ولكن الكي إن شاء الله يفسد السم.

التففنا حول محمود، أرحت رأسه على حجري أمسح العرق المتفصد عن جبينه، وأقرأ القرآن فوق رأسه.

الجميع واجم، فاطمة التي لم تتجاوز السادسة عشرة ترتعش، تتحسس الأرض تحتها كل دقيقة، ظلت واقفة تخشى الجلوس. رفعها أبوها فوق صخرة مرتفعة قليلًا علها تهدأ.

غاب الدليل ساعة، فظنناه تركنا ورحل. عاد يحمل بعض أوراق الشجر والأعشاب الجافة، أوصى فضيلة بغليها للملدوغ، يشرب منها ويغسل مكان الجرح.

عاد يجلس مكانه بالقرب منا، يدندن للصحراء بلهجته البجاوية، ويسرح بعيدًا يرسم خطوطًا بعصاه.

سرحنا معه وحل الظلام، ولظلام الصحارى حكاية أخرى.

(6)

انتظروا حتى رحل الجميع، فتشوا البيوت علهم يجدون شيئًا ثمينًا تركه الراحلون: حجة بيت، بعض النقود، بعض الحلي المنسية! تحت جنح الظلام تسللوا: برعي وحسنين وصابر، ومعهم دليل يعرف الغرب جيدًا!

اتجهوا غربًا، تلثموا وانتهزوا خلو الطريق ليعبروا الصحراء نحو جبل الذهب، الحلم الذي راودهم منذ اندلاع الأزمة. السر الذي أخفوه عن الجميع. لم يلحظ أحد غيابهم، هم كالرحل دومًا، لا عمل ثابتًا ولا أهل، وافدون على هذه القرية، يعملون بأعمال النجارة والسباكة. ضرب الجفاف أرضهم أيضًا فلا سبيل لعودتهم.

سمعوا عن جبل العوينات. حكى لهم برعي عن بلدياته الذي عاد ثريًّا من هناك!

المخاطرة كبيرة، ولكن الذهب يستحق.

ضحكوا وهم يقطعون الطريق الغربي النازل جنوبًا، قال برعي:

– مساكين أهل هذه القرية، تشتتوا ثانية.

– أردف صابر، كان علينا أن نخبرهم عن الجبل، عشنا معهم سنين وأكلنا عيش وملح.

نهره برعي، ولكزه بعصا يحملها: أي جنون هذا، أتريد أن تفتح علينا أبواب جهنم؟ نحن متسللون، والمخاطرة كبيرة، هل سنصطحب معنا قبيلة كاملة!

اسكت يا صابر وجمد قلبك، الموضوع لا يحتمل العيش والملح.

ابتلع صابر ريقه، وأحكم اللثام حول وجهه، تحسس سلاحه، الذي أخفاه بجيب جلبابه، كل منهم يحمل سلاحًا، الطريق طويل، والصحراء مليئة بقطاع الطرق!

حتى الأدلاء لا أمان لهم.

(7)

ظلت النار مشتعلة تتوهج وتخبو، تتراقص وجوهنا مع ارتعاش ضوئها، الجميع متعب وخائف، عوى ذئب فاستيقظت فضيلة فزعة تبسمل. الدليل يغط في نومه، يحمي وجهه ورجليه.

فاطمة تنام على صدر أمها منكمشة، وعليّ يستند على كتف أبيه، وأنا أتحسس محمودًا كل لحظة، يتأوه ويهذي ببعض الكلمات: النيل، النوبة، المعتقل، دافو!

أمسح عرقه، وأسقيه بعض الماء ليعود لغيبوبته؛ فأغفو وأراني صغيرًا بجلبابي الدبلان المقلم، أمر على بيت محمود أصفِّر له، فيخرج مسرعًا.

نتجه نحو غابات النخيل، نعبرها مسرعين، ساقيتنا الكبيرة إلى اليمين، صلبة وقوية، تعلو الأرض بعدة أمتار، البقرة العجفاء تدور بلا توقف، القواديس تلمع تحت أشعة الشمس، ترفع الماء من النيل للأرض، تسير في أخاديد وقنوات حفرها أبي بعناية، ينساب الماء بهوادة يسقي عيدان الذرة الطويلة المائلة! أسبق محمودًا، كنت دومًا أسبقه عدوًا ويسبقني سباحة! لكم كان ماهرًا، لا يهاب النيل؛ حتى أيام السدة الشتوية، لولا برودة الماء وقتها ما منعه عن الماء شيء.

انطلقت عند الضفة الشرقية، أخلع جلبابي وأكومه عند الشاطئ، يتبعني محمود، ونقفز بعد أن نعد: واحد، اثنان، ثلاثة.. هوبّا!!!!

يحملنا الماء على ظهره، الموج لطيف، والماء يطفئ حرارة الجو، محمود يستعرض مهاراته، ينام حينًا على سطح الماء مسترخيًا يحرك أطراف أصابعه في هدوء، ثم ينقلب فجأة على بطنه، ويجدف بذراعيه يعبر إلى الشاطئ الآخر، نتبادل المزاح ورشرشة الماء، تعلو ضحكاتنا، ونلوح لبعض الصبية!

أدخل في دوامة دون أن أنتبه، تدور الأرض الطينية تحت قدمي بسرعة، أحاول أن أجدف بذراعيّ دون جدوى، أصرخ بمحمود طالبًا النجدة، كان قد ابتعد صوب الشاطئ الشرقي، أغطس وأعاود الظهور، أبتلع بعض الماء، أعاود الصراخ!

ينتبه ينتبه محمود، فيسبح ناحيتي بسرعة! يطوقني بذراعيه ويحاول أن يرفعني فوق سطح الماء، الدوامة تشدنا أكثر، خارت قواي، وأنا أتشبث به، بدأت أغيب عن الوعي! صرخات محمود في أذني يطلب النجدة!أفتح عيني وأرى الجمع فوق رأسي، أمي الملتاعة تبكي، وجه أبي الحانق والخائف، الرجال حولي، ومحمود يتمدد بجانبي، يلتقط أنفاسه بصعوبة، يغطينا الطمي!

أبتسم بصعوبة لوجهه الباسم، أمي تحتضني، وأبي يصرخ في رغم خوفه:

– لولا محمود، لكنت طعامًا للسمك! كم مرة حذرتك من النزول للنيل؟! أولاد ملاعين.

أضحك رغم رغبتي الملحة في أن أفرغ ما بجوفي، أقوم مستندًا على كتف أمي، محمود بجواري ينعتني بالجبان، باسمًا، أحتضنه في حنو، ندخل البيت وتصر أمي عليه ليبقى، نغتسل من الطين العالق بنا، نزدرد الخمريد سريعًا مع اللبن الرايب المحلى بعسل التمر، ونتمدد على العنجريب، نغفو من فرط التعب!

أفتح عيني على صوت محمود يتأوه، وطعم الطعام ما يزال في حلقي.

(8)

السيارة تهتز، تقطع الطريق الصاعد للشمال، هنا حيث كان يجري شريان الحياة. الرمال الصفراء تحل مكان الخضرة اليانعة؛ فالصحراء بدأت بالتمدد، تحتل الأفق، وتجثم فوق السهول الخضراء، عيدان القصب ضربها الاصفرار، مالت رؤوسها الجافة مع الريح، تخشخش وتتكسر كلما انحنت.

الأرض بدأت بالتشقق، رسم الجفاف أخاديد متعرجة على وجه الأرض، الطيور تحلق مهاجرة جنوبًا، هل أخطأنا باتجاهنا للشمال!

هز أحمد بشر رأسه يلفظ الفكرة السوداء، على الرغم من مشاهد الموت التي تحيطه، فلربما سيكون الاتجاه شمالًا نجاته ومن معه، الشمال مصدر القوة دومًا، من أجلهم غرقت أرضنا، هناك حيث الحكم والقوة.

بالتأكيد لديهم الحل، لن يتركوا الناس تهلك، بالتأكيد لديهم حل!

لم يستطع أحمد بشر – على الرغم من صلابته – إخفاء اضطرابه، سرح عبر النافذة وسحابة الغبار تلاحقه: المكان موحش.

القرى التي كان يمر عليها مئات المرات في طريقه للشمال باتت خرابًا. البيوت خاوية، والأراضي على الجانبين خلت من الزرع والناس، الماشية نافقة هنا وهناك! يا الله! هل تأخرنا بالرحيل؟

انتظرنا لعلهم يجدون حلًّا، أو لربما هناك حلول ولكنها ليست لأهل الجنوب البعيد، ربما عندما نصل العاصمة سيكون الأمر مختلفًا!

تمتمت زوجته في حسرة: يا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله!

بكى الطفل فجأة. خرج من شروده على فرملة السائق المفاجئة، ملثمون يقطعون الطريق، هراوات وأسلحة بيضاء كبيرة مشرعة! هذا ما ينقصنا!

صرخت النسوة، وبكى الأطفال، أمروهم بالنزول من السيارة، طوحوا أمتعتهم أرضًا، قاوم السائق وحاول الفرار بالسيارة، كان نصيبه ضربة قوية شجت رأسه!

تعالى الصياح، فصرخ قائدهم في أحمد بشر:

– أسكت هؤلاء النسوة وإلا..

سكتن، إلا من نحيب متقطع! فتشوهم، أخذوا الحلي والنقود، حتى الطعام لم يسلم، نهبوا كل شيء وأخذوا السيارة ورحلوا، فروا مخلفين سحابة من الغبار ورائحة الوقود , تركوهم في العراء، لا شيء حولهم إلا الجفاف ورائحة الموت.

(9)

محمود يفتح عينيه ببطء، يدير البصر فيهم مبهوتًا، تشققت شفتاه وابيضتا، ما يزال يتصبب عرقًا، سقوه مغلي الأعشاب، أسندوا رأسه ليطعموه بعض الخمريد والحليب. ابتسم ابتسامة واهنة، ثم نظر لصالح بحنو ممازحًا:

– عمر الشقي بقي يا صالح.

مسح صالح جبهته بخرقة مبللة، ذرف دمعتين حاول أن يخفيهما، ربت محمود على كتف صالح مشجعًا: سأنجو، لا تخف، سأنجو.

(10)

صباح اليوم التالي، شروق الصحراء مفعم بالحياة، رغم كل المصاعب التي حولنا، أنا الهرم الذي تجاوز التسعين، ما أزال أحب الشروق!

كنت دومًا أنتظر الشمس عند طرف النهر، أتسلل خلسة قبل الشروق بقليل، وأمي تتربع فوق الحصيرة الملونة، تتمتم بأدعيتها بعد صلاة الفجر، تغلبها رطانتها أحيانًا فتختلط الآيات عليها!

يسمعها أبي فيعدل لها الكلمات، أبي الذي حفظ القرآن، واشتغل بالزراعة عمره كله، الذي سقط دون حراك وقت التهجير؛ عندما ذهبت أرضه صريعة ماء النهر! كان يتحدى الجميع قبل تعلية الخزان بأن الأرض ستقاوم، ولن

تنهزم أمام الماء وعيون الخزان، حتى أصبح اليوم الذي غرقت فيه الأرض، وتهدمت الجدران تحت وطأة التعلية!

الخزان أكل بيوت الكنوز قبلنا، نزحوا للجبال تؤويهم، وظلت الأرض جدباء قاحلة! هم احتموا بالجبل، ونحن نزحنا للغرب عند التعلية الثانية!

ظلت الأرض أمامنا شرقي النيل تئن تحت الماء طيلة الشتاء، ونحن ننظر إليها بحسرة. شواشي النخلات الباسقات تطل برأسها من تحت الماء علها تجد متنفسًا، السواقي الغارقات تحت الماء، والبيوت المتهدمة هناك تحن لنا، ونحنّ نحن لها!

أبي، ذلك العنيد الذي ما إن تنحسر المياه صيفًا حتى ينزل الأرض الزلقة يبذر الذرة والكشرنجيج، يرعى غيط اللوبيا ونوارات الفول.

أبي الذي لم يرتبط إلا بأرضه، لم أحن إليه الآن؟ ربما لشروق شمس يذكرني به عند البكور يحمل فأسه، ويلتهم فطوره على عجل، يفتح باب الحظيرة الخلفي، يسوق بقراته نحو الساقية، يدندن:

(أبدن أبدنا بالنا تون فابا يمونا، برو وش المراية بالناتون فابا يامونا)!

يقضي بالأرض أكثر وقته، يعود مع أذان المغرب، تعلوه حمرة تكسو وجهه الأبنوسي النحيل، يقابلني دومًا بنفس الابتسامة الهادئة. وعند باب الدار، يسألني عن الكتاب والشيخ، يجمعنا حوله للغذاء، ثم أنسلّ.

عند الساحة الممتدة بين البيوت والدكان، نلعب الحجلة حتى العشاء، أنا ومحمود، وفضيلة تنظر إلينا في شغف، صغيرة بضفيرتين وثوب ملون.

ننطلق لبيوتنا بعد أن نشتري قمع السكر نتقاسمه طول الطريق.

(11)

عاد الدليل يدندن مقتربًا يلقي التحية، ويسأل عن محمود، يفحص جرحه ويطمئننا، سيكون بخير بعد قليل، لا بد أن نعاود السير قبل أن تشتد الشمس، فقط أعطوه المزيد من الأعشاب.

انتصفت الشمس فوقنا، الرمال تعكس الأشعة القوية، تحسن محمود كثيرًا، العنيد المقاوم دومًا، رفيق دربي طيلة أعوامي المنصرمة، ولدنا تقريبًا بنفس السنة، قبل أعوام من تعلية الخزان الثانية، كنا طفلين لا نعلم من الدنيا شيئًا عندما سمعنا عن الخزان والمياه التي ستغرق أرضنا، الأفندية بالطرابيش الحمر يحلون بنجعنا بدفاترهم المنتفخة وأقلام الكوبيا، والعرق الذي يتفصد من

جبينهم، يدورون على البيوت والأراضي، يسجلون كل شيء: البيوت والسواقي والشواديف، النخل، وشرائح الأرض القليلة!

يستريحون تحت أجمات النخيل. نتلصص عليهم من وراء عيدان الذرة العالية، أو نختبئ بالأرض الواطئة خلف الدكان نتسمع لحديث لا نعلم مغزاه.

أبي يجلس مسندًا رأسه بين راحتيه، محمد طه صاحب الدكان من خلف البنك ساهمًا يقلب دفتر المديونية، يبل القلم بريقه، ويشطب ويحسب ويتأفف، إمام الجامع، وشيخ الكتاب، الشيخ عيسى، يهز رأسه وكأنه في حلقة ذكر، يتمايل دون أن يتفوه بكلمة.

عوض الريس أبو محمود، بقامته الطويلة الشامخة، يأتي مسرعًا يجلس بين الجمع، تدور فناجين القهوة بين الرجال، يلفون سجائرهم، وبعضهم يخرج سجائر مَكَنة يوزعها عليهم. ينفثون دخانهم حلقات ترتسم فوق الرؤوس، وتظل تسبح حتى تختفي في ظلمة الليل، يحتد أبي:

– هذا ظلم بين، مين يقول نخلة بنص جنيه تعويض؟ النخلة اللي بتطرح ثقلها بلح ناخد فيها نص جنيه؟

علت الهمهمات الحزينة الرافضة:

- أمر الله!
- الله ما يرضاش بالظلم! أمر الحكومة مش أمر الله.
- حكومة إسماعيل صدقي، منه لله.
- والعمل؟
- نرفض التعويضات، نرفع شكاوى وعرايض.
- ومين يسمع يا شيخ!

عاد النقاش يدور مجددًا، تعويضات، نروح فين، أمر الله!

كنا لا نعي شيئًا سوى أن هناك مصيبة ستحل علينا.

حتى محمود أصر على أبيه أن يشرح له، فلم يفهم بعقل الطفل إلا أننا راحلون للغرب، وأن أرضنا ستنام تحت ثقل الماء طيلة الشتاء.

الغرب، وأين نسكن؟ الغرب رمال صفراء، أفاعٍ وثعابين، كثبان من الرمال والصفرة والجدب! أين سنلعب؟ ومتى سنجمع البلح المتساقط تحت النخلات؟

لم أفهم شيئًا! علت الحيرة وجهي، وارتسم الغضب على وجه محمود، صاح: لن أرحل؛ بيتنا أعلى النجع عند الجبل، سنذهب هناك ونحتمي به، ولن تقوى المياه على هدمه.

خاصم محمود الدنيا ثلاثة أيام، عاف الأكل والشرب واللعب معنا، احتجب بالبيت.

حار أبواه في أمره، استدعاني أبوه وسألني! حرت أيضًا، قلت له إنه لا يريد الرحيل للغرب!

دمعت عينا الأب، وربت على كتف ولده، وانصرف دون أن يتكلم.

(12)

استفقنا على العمدة يدعو الرجال لمجلسه. ترى: هل جد جديد؟ هل سيعدلون عن رأيهم؟ هل سنبقى ولن نرحل للغرب المقفر؟

خرج أبي على عجل، لحقت به ومررت على محمود، صعدنا الطريق لبيت العمدة عند طرف النجع. بيته كبير يحيطه سور مرتفع قليلًا، تطل من حديقته بعض أشجار الدوم والنخيل، اقتربنا بحذر.

كان أمر الرحيل يشغلنا كالكبار، مررنا من البوابة الخالية، النوافذ مفتوحة، وقفنا خلفها نطل عليهم، الرجال في الديوانية، بعضهم فوق العناجريب، وبعضهم افترش الحصر الملونة، تتوسطهم طاولة غطيت بمفرش أبيض نظيف،

وعليها إبريق الشاي والأكواب! الرجال يتهامسون ولم يكن العمدة بينهم، لكنه ما لبث أن دخل، يتبعه الغفير وحياهم، ردوا التحية واقفين ثم جلسوا ينتظرون الخبر، وجه العمدة يشي بالكثير.

– تنهد ثم أردف: يبدو أن المصائب لا تأتي فرادى، بالأمس قبضوا على حسين طه، حاول قتل إسماعيل صدقي باشا.

علت همهمات الرجال. بعضهم لم يفهم شيئًا، من هو حسين طه؟ ولماذا حاول قتل معالي الباشا؟ ومن هو هذا الباشا أساسًا؟

تحطم أملنا، كنا ننتظر خبر البقاء، فإذا بالأمر يزداد تعقيدًا، ولابد من انتظار أبي عند عودته لأفهم منه. عدنا والخيبة تكسو وجهينا، ننتظر الخبر عند المصطبة الأمامية لبيتنا.

كانت أيامًا مريرة: الكل مترقب، أحد أبناء النوبة الطيبين حاول اغتيال دولة رئيس الوزراء، وتصدرت صورته صدر الصحيفة، كان الشاب ذو الوجه الأسمر النحيف المنكسر قد أخفى بلطة بملابسه، وتنكر في زي سفرجي، وعند عودة الباشا من الإسكندرية في القطار، انتظر حسين طه اللحظة الحاسمة، لكن لم ينجح في تنفيذ خطته، فشل واقتادوه للسجن، وحكم عليه بسبع سنوات؛ ليموت قهرًا؛ إذ لم يحتمل مرارة السجن، وتخلى أبوه النائب في البرلمان عنه!

انحاز أبوه للحكومة، ونسي ابنه وأهله، والظلم الواقع عليهم!

شغلنا موضوع حسين طه عن الرحيل، تمنيت لو كنت قد قابلته، تخيلته كثيرًا! فتًى بوجه نحيل، وقلب ثائر، وعقل رافض للظلم، كنت ألتصق بأبي وهو يقرأ الجريدة القادمة مع سفينة البوستة، أسأل عن أخباره!

اتشح النجع بالسواد عند موته،وضاع آخر أمل للبقاء.

على كل حال، صرفنا التعويضات الهزيلة؛ رغم الرفض وعرائض الشكاوى تسافر للقاهرة فلا يلتفت لها أحد! حل الشتاء وأغلقوا عيون الخزان، وارتفع الماء!

نزحنا للغرب المقفر، تشردنا، وتصدعت جدران بيوتنا ثم تهدمت أمام أعيننا، ونامت السواقي تحت الماء، ارتفع الماء حتى غطى القبور والذرة والنخيل.حملنا متاعنا وقطعنا النيل غربًا، نقف على ضفته، كل شيء يتهاوى، حتى المسجد توقف عن نداءات الصلاة. زمجر النيل وعلا، في دوامات لا تنتهي، وخير يرحل للشمال ينعم به وحده.

ذهب النيل شمالًا، ظل يجري في رحلة لا آخر لها!

من هناك، من قلب الغابات السوداء خُلق، أتى حاملًا خيره وطينه. أوقفنا جموحه بسدود وعيون وحجر صلد، يضرب سطحه ويرتد كالوحش يبتلع الجميع، ثم يشيخ ويهدر هديره الأخير نحو الموت. حين وفد إلينا ضيفًا، ألقينا بعرائس النيل تحت أقدامه المسرعة! ففرح ورمى بطميه الخصب فوق الأرض لتنبت خضرة وخيرًا! قدسناه فحمانا، لكن حين أدرنا له ظهورنا وقاومنا جريانه بعيون نفتحها ونغلقها متى شئنا، أبى إلا أن يعاقبنا برحيل لا عودة منه! آآآه يا نوبة، آآه يا نيل!

(13)

استأنفنا المسير: محمود يستند على حسين، علي يأخذ بيدي، فاطمة تمسك بفضيلة، والدليل يسبقنا بخطوات، لا يلتفت إلينا كثيرًا، يقتفي الأثر كل فترة، ويدندن للصحراء.

اقتربنا من خور العلاقي: أرض سهلة ممتدة على مرمى البصر، كانت مملوءة بماء البحيرة قبل الجفاف، بعض آثار الحياة ماتزال به، برك الماء لمّا تجف جميعها، تتحلق حولها بعض الطيور، تهاجر أسرابًا أخذت شكل القوس الكبير، تمتد وتتقلص، تتجه جنوبًا نحو الماء، وطيور صغيرة لم تحتمل الجفاف، ولم تقو على

الرحيل، جيفها منتشرة هنا، حيث يتنازع لحومها الهزيلة ورل نيلي صغير وآخر أكبر حجمًا.

بدأ الجفاف يضرب أوراق أشجار الأثل المتناثرة. الخور ضربه الجفاف ككل شيء حولنا، بقايا حياة تحاول أن تنجو، كما نحاول نحن، فهل لنا في الجنوب مكان؟ الخور يمتد أمامنا، نجلس عند طرفه المنحدر نحو بقايا الماء الآسن، نتمدد تحت الشمس التي تعاود الرحيل للغرب!سنبيت الليلة هنا، لن نقوى على معاودة المسير مجددًا، محمود أرهقته حرارة الشمس وجفاف الصحراء، كما أن فضيلة وفاطمة وزينب تعبن من المسير وتقطعت أقدامهن.

أقاوم وأتجلد بذكريات تنساب لعقلي كلما توغلنا في الصحراء، الدليل قليل الكلام، أكثر اتصاله بنا إيماءات وإشارات، يتجه غربًا فنتجه، شرقًا فنتبعه، البشارية قوم الصحراء، كانوا يجوبون هم والعبابدة النوبة قديمًا، أصحاب إبل تبحث دومًا عن مرعى لها. الصحراء أمهم التي أنجبتهم، حين كنت طفلًا اقتربت منهم في حذر، كان يحول بيننا دومًا حاجز اللغة حتى بدأت أفهمهم قليلًا. كان النجع محط القادمين من الصحراء والصعيد، النوبة النائمة بحضن النيل والجبل والصحراء، كانت دومًا فريدة، الكل ينزل عليها، ولا تتغير، سياج من العادات واللغة ضرب نفسه حول أهلها.

والآن كُسر السياج، وغرقت النوبة التي كانت ما تزال تقاوم التغيير، حتى ذهبت الأرض! وها نحن نبحث عن أرض جديدة.

مالت الشمس قليلًا، بدت سلسة الجبال البعيدة نحو الشرق كبوابات ضخمة تقف في شموخ تحرس الأرض التي تظللها، سرحت نحو ظل الشمس المنكسر عليها، تحدث الدليل فجأة كأنه أراد أن يقول شيئًا مهمًّا، فعلا صوته الرخيم من خلف لثامه يريد أن يلفت الانتباه: هذا جدي يا شيخ!

– جدك؟

– إيه، ياشيخ، جدي جبل علبة.

التفتُّ إليه مستفهمًا، ضحكت فاطمة ساخرة وأخفت وجهها بطرحتها، رفع عليّ حاجبيه وأردف، تقصد الجبل، جدك هو الجبل؟

– إيه نعم، نحن أبناء وأحفاد الجبل، هذه الصحراء والجبال والنباتات هي من نسلنا!

– ألا تعلم يا شيخ أنه جدي بشر؟ ومن بعده جدي كوكا الذي تزوج بامرأتين، واحدة هي أم كل نبات وحيوان الصحراء التي ترى، والأخرى أم

البشاريين، حتى جدي كوكا نفسه تحول لجبل علبة، يحرس أبناءه، يقف هناك ياشيخ شاهدًا علينا، لا يبرح مكانه أبدًا.

تحول الاندهاش لرهبة، وانقلبت الضحكة فوق وجه فاطمة لخوف وهي تطيل النظر للجبل تراه شبحًا ضخمًا، زالت الشمس عن وجهه، فبات في هيئته وتعريجات وجهه كالدليل البشاري. ارتسم الخوف على وجهها، وأشاحت بنظرها بعيدًا.

كان الدليل لا يزال ينظر باتجاه الجبل حتى هيئ إلينا أنه يغمغم بصلوات خاصة، أو يرسل ترنيمات لجده القابع هناك عند الحد الشرقي!

اختفت الشمس تمامًا وحل ليل جديد. كنا قد ألفنا صوت الضباع! أشعلنا النار وتحلقنا حولها، أكلنا قليلًا من طعام تبقى معنا. تمددنا بحذر والنجوم تطل فوقنا بسجادتها البديعة، كان القمر بدرًا وجو الصحراء – وإن ألهب جلودنا صباحًا – إلا أنه يميل للبرودة ليلًا، غنى عليّ بصوته الشجي:

أيوو شمندورة منجنا.. بهر جاسكو مينجنا

عاد السكون يخيم علينا، إلا من صوت فرقعة الحطب كل فترة، وعواء ذئب بعيد يهاجم أرنبًا ضل طريقه ليلًا.

تباعدت الأصوات وحل السكون والظلام، إلا من صوت الأهازيج تقترب، ومراكب النيل تشق المجرى الواسع، والأنوار تقترب رويدًا.

(14)

قرع الطبول ينداح صداه بين الجبل والنيل، عبيد سود تلمع أجسادهم الأبنوسية الضخمة تحت ضوء القمر، يصطفون على جانبي المركب الكبير ذي الرأس المدبب.

رائحة الصندل تنبعث من جنبات المركب تنتشر مع الريح وتمتلئ بها الأشرعة البيضاء فترحل الرائحة للمصطفين على جانبي النيل يحملون القناديل ويلوحون. الرجال يحملون الطبول الكبيرة يدقون عليها بضربات منتظمة، تهتز لها الأرجاء.

يظهر الملك المنتصر بعنخي، يعلو رأسه تاج الملك الذهبي، يرتفع فوقه ثعبان الكوبرا بعينيه الفيروزيتين تلمعان تحت الضوء، الملك المنتصر القادم من الجنوب، الصاعد عبر النيل نحو طيبة يتبرك بالآلهة ويقدم القرابين.

المنتصر سليل الفراعنة السود، القادمين من نبتة في أقصى الجنوب، يحكمون سيطرتهم على أرض النيل، ويوحدون ما بين شطري الأرض، شمالًا وجنوبًا، هاهو يتوجه لآمون يتبرك به ويتوج نصره المظفر.

يلتف الجند حوله قبل الرحيل شمالًا، يأمرهم بالتطهر بمياه النيل المقدس، الملك المفوه يخطب بجنوده:

"إذا بلغتم طيبة، ووقفتم أمام ابت سوت فانغمروا في الماء، وتطهروا في النهر، وارتدوا الكتان النقي، وحطوا الأقواس، وألقوا السهام جانبًا!

لا تتباهوا بأنكم أصحاب سلطة في حضرة الذي بدون رضاه ليس للشجاع قدرة، فيجعل الضعيف قويًّا، والجموع تتراجع أمام القلة وتعود أدراجها، ويتغلب الفرد على ألف.

تبللوا بماء هيكله، وقبلوا الأرض بين يديه، وقولوا له: أرشدنا إلى الطريق، فلنحارب في ظل قوتك، ولتكن معارك المجندين الذين بعثت بهم مظفرة، وليستولِ الرعب على الجموع عندما تواجههم."

يعلو صوته بعبارات النصر، يلوح للجموع المحتشدة على ضفتي النيل تحمل سنابل القمح الذهبية، ينشدون ترانيمهم:

"أيها الأمير القوى، أيها الأمير القوى، أيا بيًّا، أيها الأمير القوى! ها أنت تتقدم بعد أن فرضت سيطرتك على الشمال، إنك تحول الثيران إلى إناث!

طوبى لقلب المرأة التي أنجبتك! وطوبى لقلب الرجل الذي من صلبك!

تبرك "بيّا"بالنيل الذي حمله لمصر، حمله منتصرًا وعاد به منتصرًا، حتى وثنيتهم شرعت لهم التطهر بماء النيل، النهر الذي كان خالدًا! أين هو الآن؟

نرحل نحن للجنوب نبحث عنه لنتبرك به، تُرى هل سيعرفنا؟

(15)

جلسوا مبهوتين؛ فماتزال الصدمة تعتريهم، صامتين إلا من نحيب النسوة الصامت، وتأوهات السائق يمسك برأسه الذي يسيل دمه، أحمد بشر، قام ملتفتًا يمينًا ويسارًا، ينادي طالبًا العون فلا يتردد سوى صوته في الأرجاء!

أراد أن يجوب المكان بحثًا عن حل فصرخت زوجته خائفة ألا يبتعد! الأرض حولهم تكاد تكون خاوية، كانت فدادين مزروعة والآن لا شيء سوى التشققات تكسوها، دموع زوجة إسماعيل شعبان تسح!

تصرخ في هيستيريا ممسكة بتلابيب الزوج المبهوت: قلت لك نرحل للجنوب، الشيخ صالح رحل جنوبًا، هناك أهلنا، ولكنك رفضت، سنموت هنا، ألا ترى الموت ينتشر حولنا؟

الشاب لا يجيب، ينظر حوله يحاول البحث عن أي حياة، رعشة مصباح تظهر من بعيد، أسكت الزوج امرأته بحدة واتجه دون أن يتفوه بكلمة ناحية الضوء.

صرخت المرأة ثانية، حاول أحمد بشر أن يوقفه، أو أن يذهب معه.

– لن نترك النساء والأطفال، سأذهب سريعًا لعلها بعض البيوت البعيدة، ربما نجد المساعدة، لن أتأخر.

لوح لهم مبتعدًا. الزوجة الشابة تتابعه بعينيها الدامعتين، تحتضن ابنها وتلتفت لأحمد بشر فترى خلجات وجهه المتوترة وعينيه الزائغتين.

ثقل الليل إلا من المصابيح القليلة المرتعشة بعيدًا حيث توجه إسماعيل.

جميلة التي لحقت بهم وهم يغادرون تتحسس بطنها المنتفخ بجنينها، تعاودها التقلصات كل فترة فتتماسك، وتجز على أسنانها، لا شيء في الجوار إلا صوت الريح تصفر كل فترة.

ربط أحمد بشر رأس السائق بخرقة أخرجها من قلب الشنط المبعثرة، جمع بعض الأخشاب المتناثرة وأشعل فيها النار، التفوا حولها، الأطفال جائعون، فتشوا عن بعض الطعام المخبأ، الذي لم يصل إليه قطاع الطرق وأطعموهم.

تتسمر أعينهم باتجاه الضوء حيث ذهب إسماعيل. لا يملكون سوى الانتظار.

(16)

صوت البارود يشق سكون الليل. علا نباح الكلاب من بعيد، تسمروا حيث هم.

وقف أحمد بشر يستطلع الأمر، يتحرك في المكان بعصبية، يتوجه ناحية الصوت فتصرخ زوجته.

يعود ليدور حول نفسه، ينادي على إسماعيل، يعود رجع صوته يتردد في الأنحاء. يرتفع بكاء الأطفال وعويل النسوة. زوجة إسماعيل تنوح وتلطم وجهها!

صوت أقدام تتكسر تحتها عيدان الذرة الجافة وشواشي القصب الملقى فوق الأرض المتشققة.

تملكهم الفزع، تناول أحمد بشر قطعة خشبية وتأهب للقادم، تمتم:

– أين أنت يا إسماعيل؟ اقترب الصوت وبدا الشبح من بعيد يعدو ناحيتهم.

صرخات جميلة المفاجئة، قطعت صمتهم المشوب بالخوف، تتأوه وتطلق صرخاتها، تهب زوجة أحمد بشر وهي تضرب على صدرها:

– مالك يا جميلة، لسه بدري على ميعادك.

تلكز زوجة إسماعيل السارحة نحو الضوء وصوت البارود تبحث عن زوجها:

–قومي؛ الولية شكلها بتولد!

تسندان المرأة التي علا صياحها المتقطع، تكز على أسنانها حينًا. تهدأ قليلًا ثم تعاودها آلام الطلق فتطلق صرختها ثانية.

صاحت زوجة أحمد بشر: الحقنا يا أحمد. يلتفت في عصبية وما يزال يحمل قطعة الخشب بيده متأهبًا:

– اتصرفي يا ولية، هو أنا كنت داية!

يقوم السائق متحاملًا يتحسس رأسه المصاب، ويبتعد ليفسح المكان للنسوة، والمرأة التي افترشت الأرض وسال ماؤها، وعلا صوتها تنادي على زوجها الذي سبقها للشمال.

تندب حظها الذي جعلها تلد على الطريق، ثم يعاودها الطلق فتصرخ مجددًا.

يعود صوت البارود من بعيد يختلط بنباح الكلاب وصرخات المرأة، صوت الأقدام يقترب أكثر! يتأهب أحمد بشر ويتحامل السائق ويلتقط هو الآخر قطعة خشب ويقف بجوار أحمد!

تعلو صرخة أخرى ثم يسود الهدوء إلا من بكاء طفل وأصوات الأقدام وهي تقترب، يظهر إسماعيل أمامهم لاهثًا يسيل دمه، تلتفت زوجته ناحيته!

يسقط الرجل أرضًا بلا حراك، ليعلو عويل المرأة من جديد.

(17)

أيقظنا الدليل مع شروق الشمس، لابد أن نستأنف المسير، الرحلة للجنوب ما تزال طويلة، اتفقنا معه على أن يوصلنا لوادي حلفا، فربما نجد هناك من أهلنا من سبقنا، أو ربما نجد أرضًا تعوضنا. يصر على طريقه للشرق، حكى لنا عن كثيرين تعرضوا للسطو من قطاع طرق منتشرين على طول النهر، فطنوا للنازحين جنوبًا، الفارين من الموت نحو منابع النيل.

اتجهنا شرقًا. الهضاب تعلو وتنحسر. الأرض صخرية وعرة. لاحت بعض بيوت الشعر من بعيد، خيام سوداء وأخرى بخطوط بيضاء أو رمادية تكسِر اللون الأسود قليلًا. تتراص في شبه دائرة، يستند قماشها المصنوع من وبر الجمال وشعر الماعز إلى عمدان خشبية ترفعها عن الأرض. توسط أعلى تلك الأعمدة الخيمة فبدا السقف هرميًّا بعض الشيء.

تقبع سلسلة الجبال الشرقية في الخلف، حماية طبيعية لظهر القبيلة، في الطرف الشمالي بئر ماء تتناوب الفتيات على استخراج الماء منه بأوعية وجرار يحملنها فوق الرؤوس، يتلفتن إلينا بعيون متسائلة من تحت ستر يخفي الأنف والفم كعادات أهل الصحراء.

اقترب الدليل من الخيمة الكبيرة في المنتصف، يبدو أنها لشيخ القبيلة، خيمة فسيحة، مقسمة إلى ثلاثة أقسام بأعمدة طولية، يغطي أرضها الرملية بساط من صوف الماعز الملون بألوان البدو الزاهية، الأحمر القرمزي والأصفر والأسود، على جوانب الخيمة رُصت الوسائد المكسوة بنفس الألوان البديعة، يتكئ عليها جمع من الرجال بلباس البدو الأبيض الفضفاض. أمامهم حطب مشتعل يتوهج احمرارًا، يعلوه إبريق نحاسي كبير، تفوح منه رائحة القهوة.

قاموا لتحيتنا، الدليل يعرفهم جيدًا، كان شيخ القبيلة يتوسطهم، بوجهه الأسمر النحيف المشرب بحمرة شمس الصحراء اللافحة، يرتدي ثوبًا أبيض كسائر الرجال هنا، ويغطي رأسه بغطاء أحمر ينسدل فوق كتفيه، يمسكه عقال أسود مستدير كعادة عربان الصحراء.

انحنى الدليل فقبل رأس الشيخ، وحياه. رحبوا بنا وأجلسونا بالمنتصف على يمين الشيخ. أشاروا للفتيات عند البئر، فتقدمت فتاة نحيلة، تلبس عباءة سوداء زُين ذيلها بصفوف من الشرائط الملونة، وعلى رأسها غطاء أسود تدلت من تحته ضفيرتاها الطويلتان في نعومة!

أخفت الفتاة وجهها بطرف طرحتها، وبدت عيناها الكحيلتان تبتسمان في خجل، وصحبت فضيلة وزينب وفاطمة لخيمة النساء في الخلف!

– يا هلا ومرحبا بالضيف: انطلقت عبارات الترحيب من الجميع فأزالت حاجز الخوف والترقب من قلوبنا، العرب والبدو قليلو الكلام؛ وإن كانوا على الرغم من ذلك يتنافسون لإكرام ضيفهم.

دارت فناجين القهوة العربية المرة ، يصبها شاب، يدور علينا محييًا.

المذاق مر ومحبب، الجو في الخيمة – وإن كان حارًّا – أحسن حالًا من الصحراء المكشوفة. يسأل الشيخ باهتمام موجهًا كلماته للدليل: من وين المسايير؟

يتوجه الدليل إلينا بنظراته، ويميل برأسه للشيخ، شارحًا ما حل بنا من جفاف وأزمة أهلكت الزرع والضرع، وهروبنا للجنوب بحثًا عن نجاة قرب المصب. أومأ الشيخ برأسه وسرح قليلًا، ثم توجه إلي بالكلام:

– إإإإإإإإإإيه، تعرف يا شيخ، كنا في الماضي أهل حرب وإغارة، نتكسب من غاراتنا على قرى النيل، إلا أننا توقفنا عن ذلك منذ زمن، واكتفينا بالترحال وراء الكلأ والعشب، كلما نضب بئر ارتحلنا، أما أنتم يا أهل النيل فلا طاقة لكم بعيش الصحراء مثلنا.

تنهدت والتفت للشيخ في حسرة: أي نيل يا شيخ طال عمرك؟

جف النهر منذ أشهر طويلة، قاومنا لكي نبقى، ولكن كيف لنا ذلك؟

– هز الرجل رأسه في أسىً متمتمًا: أمر الله.

أمر الشيخ بالطعام فأتوا بصحاف الثريد واللحم، كنا بحاجة لألفة تخرجنا من وحشة الصحراء ووحشة الرحيل ووطأه الحنين، كنا بحاجة لجمع يذكرنا بقرية تركناها منذ أيام خاوية على عروشها، وألف بئر معطلة وماء آسن، وهل لنا أن ننسى! يا الله كم اشتقت لهم! ليتنا نعرف أخبار الراحلين للشمال، ليتنا!

مالت الشمس للمغيب، فاستأذنا الشيخ في الرحيل! أقسم علينا وأصر أن نبقى يومين، زفاف ولده غدًا ولا يصح أن يتركنا نرحل في مثل هذا الوقت.

العرب – والبدو خاصة – لا يتهاونون في أمور الضيافة تلك، ربما وصل الأمر لقطيعة ونزاع ومجالس صلح. أومأ الدليل لي، فأجبت الشيخ بالموافقة.

على كل نحتاج لراحة وخاصة محمود الذي لم يتعاف كليًّا، فضيلة وزينب وفاطمة كذلك.

(18)

أسدل الليل آخر ستائره، وهانحن ننام لأول مرة منذ أيام في هذه الصحراء القاحلة تحت سقف خيمة!

لم أنم ليلتها، ذكرتني الخيمة ببيتي القديم، البيت الطيني العتيق، بجدرانه المكسوة بالجير الأبيض، ونقوش الحج المرسومة عليها، جمل وبيت الله "وحج مبرور وذنب مغفور"، المصطبة الممتدة عند الباب الخارجي، الحوش السماوي الفسيح، الغرف المتراصة حوله بقبابها العالية، الديوكة عند الطرف الشمالي، والمزيرة المسقوفة بجريد النخل وعلى حائطها صورة النيل، والفتيات يملأن الجرار، أطباق الخوص المقلوبة فوق الحوائط، الشعاليق تتدلى من الأسقف، تحمل أطباق الخوص الملونة. صندوقي الخشبي المنقوش فوقه زهور ملونة، أشيائي الثمينة المخبأة به، نبلة الصيد، طاقية العيد عليها صور الجمال والصحراء، جلباب العيد وخفي الأحمر اللامع.

مددت بصري من طرف الخيمة المفتوح على السماء، نفس النجوم التي كانت تطل علينا هناك، أنا ومحمود فوق سطح بيتنا في ليالي الصيف الحار، نعتلي النخلة المزروعة بطرف الحوش، نتمدد فوق ظهر غرفتي المسقوف بجذوع النخل، نتهامس بحكايات الكتاب!

أسر لمحمود ذات ليلة برغبتي في الزواج من فضيلة. يضحك ببراءة الأطفال ساخرًا. أغتاظ وأقسم أني سأكبر وأتزوجها، نتشاجر.

يصرخ أبي فينا، فننزل مسرعين نتكوم فوق العنجريب، ونظل هكذا حتى يغلبنا النعاس.

(19)

يوم الزفاف، صباح مبكر وسط مضارب البدو، استيقظنا مع الفجر، الشمس هنا تشرق مبكرًا، بتنا ليلتنا بخيمة الضيوف الملاصقة لخيمة شيخ القبيلة، أنا ومحمود وحسين وعلي، والنساء في الخلف عند خيام النساء.

استأذن غلام في الدخول، يحمل صحاف الطعام، إفطار البادية طبيعي ولذيذ، خبز فوق الصاج كخبز الدوكة عندنا، ولكنه أرق، جبن من حليب الماعز، وحليب نوق طازج.

أفطرنا ودعانا الشيخ لخيمته، جمع من الرجال يتوسدون الجواعد المفروشة فوق الأرض، شيوخ القبائل يتوافدون.

الشيخ يقف مرحبًا في حبور وكرم، ودلال القهوة والفناجين تدور علينا.

الشباب يسوون الساحة الممتدة بين الخيام والمفتوحة على الصحراء، يرشون الأرض بالماء، ويتناوبون على إحماء الجمر الذي أعد له مكان مخصص في الجانب الأيمن من أجل الطهي والشواء.

استند الشيخ على الوسادة يتلقى التهاني بزفاف ابنه.

تأتي الوفود من أبناء القبيلة يقبلون رأس الشيخ وكتفه. يقف شاب عند باب الخيمة بالبخور، تفوح الرائحة فتملأ المكان، يُستقبل المهنئون بالطيب والبخور.

استقبل الشباب العريس بالصيحات والأهازيج، تقدم وجلس بين يدي والده يباركه ويدعو له بالذرية.

الشباب منهمكون في الذبح وإعداد الولائم، والخيمة تستقبل المهنئين.زغاريد النساء في الخلف والغناء يصل إلى مسامعنا، الضحكات تنساب خجلى وأغانٍ شعبية ترددها الفتيات.

ونحن بين كل تلك الجلبة تناسينا التعب والطريق والرحيل. الترحاب الذي قوبلنا به، ومراسم العرس الصحراوي هذا جعلتنا نتمنى لو أطلنا البقاء هنا، ولكنا قوم لا طاقة لنا بعيش الصحراء.

امتد طعام الغداء حتى العصر، لحوم الإبل والغنم، المرق والثريد، أطباق الأرز الكبيرة تعلوها قطع اللحم!

التف القوم في دوائر حول الصحاف، قربنا الشيخ من مجلسه، محييًا وداعيًا: سمّوا.

لم يقرب هو الطعام إلا بعد أن بدأنا الأكل، ولم يبرح المجلس إلا بعد أن انتهى الجميع من الطعام!

اصطف الشباب عند الساحة صفين متقابلين يحملون السيوف، والعريس يجلس في المنتصف بردائه الأبيض والعباءة من فوقه، والغترة الحمراء والعقال فوقها!

في المنتصف يقف شاعر يرتجل أبياتًا من الشعر النبطي، يرددها الشباب وهم يهزون أجسادهم على وقع التصفيق، يحملون السيوف يحركونها فتلمع تحت أشعة الشمس:

قالت: ترى مانت بحلو.. قلت: رجّال

والزين ماهو من شروط الرجولة

الزين يلقى عند لبّاسة الشال

والرجل زين ان كان زانت فعوله

قالت علامك تلبس شماغ وعقال

انت ابدوي؟ قلت:ابدوي ومن حموله

يخرج شاعر ثان ليرتجل عفو الخاطر:

أنا ابدِوي والعين تنظر على فوق

صقرٍ ومواقيعه بروس الجبالي

إيه ابدوي لو قيل عايشٍ مع النوق

ايه بدوي والنار تصلى دلالي

ايه بدوي ما اذل راسي لمخلوق

آخذ حقوقي بالرجولة لحالي

عشت البداوة والبداوة لها ذوق

فطرة إله الكون بأولٍ وتالي

إيه ابدوي والعز ماهو بمسروق

أصل المراجل بالوفا راس مالي

ويستمر النزال بين الشعراء ويستعر، والشباب يشجعون الشاعر، ويثيرون نخوته، بينما يخرج منهم –بين حين وحين –واحد يرقص في المنتصف، يهز أكتافه ويضرب الأرض بأقدامه على وقع التصفيق، يدور ويقفز ثم يعود للصف، ليخرج غيره.. وهكذا.

(20)

في الليلة السابقة، العروس القادمة من مضاربها شمالًا، مستورة داخل هودج محمول على ناقة يحيط بها فرسان قبيلتها فوق الخيول، الخيول مزينة بشراشيب ملونة تتدلى حول عنقها ورأسها، وفوق جبهة الفرس سوار ذهبي يلمع، الراقصون يلتفون حول موكب العروس القادم يطلقون الأعيرة النارية ويرددون:

يا مرحبا ياغزالن يشغل البالِ

مزيون.. وإديه بالحنا مخضبها

ياعود ريحانة بستاااانِها سالي

تمطر عليها الثريا من سحايبها

ويهزجون:

هلا فيك ياللي مالقينالها وصوف

حلَّى المها وسمه حلّى على لونه

مابين الشفايا كِنها اللولو المصفوف

تقالوه تجاره.. وعَيُّوا يبيعونه

هلا فيك وسط اللعب خلي العرب تشوف

ترا الزين بين والعرب مايخبونه

تدخل العروس الصغيرة التي لم تتجاوز الخامسة عشرة خيمتها. يجتمع النساء حولها، جلست في المنتصف وفوق رأسها سيدة أربعينية، تعجن الحناء المطيبة، تأخذ منها وتضع في كف الصغيرة وتغلق عليها، تحمل مكحلة وحمرة، قامت تزين العروس وتمشط شعرها!

ملابسها جميلة مزركشة، عباءة طويلة ملونة، أسدلت ضفائرها السوداء الفاحمة، وفوق رأسها طرحة شفافة من لون الثوب.

النسوة المتحلقات في الخيمة ينقرن الدفوف، ويغنين بغناء بدوي جميل. تتقدم فتاة كل فترة لتتوسط الخيمة وترقص، ثم تعود لتخرج أخرى أو يتبادلن الرقص معًا.

النساء هنا لا يكشفن وجوههن أمام الرجال، وإن كن في الخيمة المخصصة لهن أقل تكلفًا.

فاطمة المنبهرة بهذا الجو الجديد والسمر المفاجئ بعد رحلة الصحراء الشاقة، أخذت تدير البصر حولها مبتسمة فرحة!

(22)

فضيلة سرحت قليلًا، ربما تذكرت عرسها الذي مر عليه أكثر من خمسين عامًا، كانت صغيرة كتلك العروس، ربما تكبرها بعام أو اثنين. صالح ابن خالها الذي نشأت معه، رفيق لعبها في الحارات وبين حيطان النخيل وعند النيل، إلى أن منعتها أمها من الخروج واللعب مع الأولاد، حين رأت خيط الدم المنساب بين رجليها، بعد أن هُرعت فزعة لأمها تظن أنها جرحت.

تبسمت أمها وقبلتها، ومن يومها لم تعد تلعب ألعاب الأطفال. لزمت البيت تتعلم صنع الخمريد والإتر والشعيرية، تصنع سلال الخوص والأطباق الملونة.

تتناهى لسمعها كلمات جديدة: والله كبرت يا فضيلة، فضيلة بقت عروس، خرطها خراط البنات! وتلمح ابتسامات لها مغزى بين أمها وأم صالح.تسدل طرحتها فوق صدرها تخفي بها ذلك التغير الذي طرأ عليها، فأحال الطفلة لشابة يتمناها شباب النجع.

كان يومًا عاديًّا! استيقظت على صوت أمي يعلو في الحوش بسعادة وهي تستقبل أم صالح زوجه خالي!

زغاريد ممطوطة جذبت نساء النجع المتشحات بالسواد دومًا حتى في الأفراح، يا الله النوبة دومًا حزينة.

خرجت من غرفتي والنوم ما يزال يداعبني، جذبتني أمي بسرعة حين رأتني نحو الغرفة مجددًا! ضمتني وقبلتني بعينين دامعتين، همست كأنها تخاف أن يسمعها أحد فتصيبني العين:

اليوم سيأتي صالح وأبوه لخطبتك. النساء بالخارج هيا أمامنا عمل كثير. أحضرت الطشت النحاسي وصبت الماء، أمرتني بالاغتسال، وأخرجت جلابية العيد المزركشة عند الصدر، فردتها بعناية فوق العنجريب، انتهيت ولبست، مشطت شعري وجمعته في ضفيرتين، أسدلت طرحتي الملونة وخرجت إليهن، ضمتني زوجة خالي قائلة: أهلًا بعروس ولدي.

على مدار ثلاثة أسابيع ظل بيتنا خلية النحل، سيدات النجع يتوافدن، صويحباتي وأولاد الجيران الصغار، لا موضع لقدم في بيتنا؛ فالكل يعمل من الفجر للعشاء، وأنا العروس المدللة لا يسمح لها بالعمل.

السيدات يطحن الدقيق والذرة على حجر الرحى، يفتلنه شعيرية رقيقة، طبق العرس الأساسي، يصنعن الخمريد والفطائر، الفتيات يصبغن حجرتي ويعلقن أطباق الخوص والشعاليق الملونة بخيوط الصوف والمزينة بالأصداف، أمي تنثر الفشار على الحضور ابتهاجًا، وترش العطر عليهن كل فترة، تتعالي كل حين زغرودة ممطوطة تطلقها وافدة جديدة لا تلبث أن تنهمك بالعمل مع النسوة.

اختبأت من صالح حين جاء حاملًا هداياه لبيتنا، أجولة الدقيق والقمح وأثواب القماش، فلا يجوز للخاطب أن يرى عروسه قبل ليلة الزفاف، حتى وإن كان رفيق لعبها قبل ذلك، وابن خالها الذي كانت تراه كل يوم.

مرت الأيام سريعة، الكل يستعد ليوم الزفاف، وبيت صالح لا يخلو من الغناء كل يوم: يجتمع الشباب عنده، محمود يلازمه، يقضي له ما يلزم من أمر العرس، يتنقل بخفة هنا وهناك، وصالح يجلس يوم الجلوة على الأرض يحوطه الشباب، والحنة تغطي كفيه ورجليه، والبيت يعج بالمهنئين؛ كل يأتي ليضع النقوط بحجره، والشباب يردد: خلف الله عليك يا عريس!

يبتسم ويرد التحية والتهاني والشباب لايكفون عن المزاح، يتسامرون حتى الفجر ويدقون على الطيران، والغناء لا ينقطع.

(23)

يوم العرس يفرشون الساحة الممتدة أمام البيوت بالرمل الأصفر الناعم، يعلقون الفوانيس ويرصون العناجريب والمناضد استعدادًا للوليمة، يقوم الجزار بالذبح، وتنهمك النسوة بإعداد الطعام.

أسلم نفسي للماشطة، تفرك جسدي بالدلكة المعجونة بالصندل، الحنة التي نقشتها بالأمس بديعة، تغطي يديّ وساقيّ، أمي تنهمك في العمل، تشملني كل فترة بعينين فرحتين دامعتين، النسوة يملأن البيت، يشعلن الكوانين وينفخن تحتها، يجهزن طعام العشاء للضيوف. أمي بخرت غرفتي أنا وصالح، ورشت العطر فوق السرير الجديد، سأظل هنا حتى الأربعين، ثم أنتقل لبيت صالح.

يخرج صالح مع الشباب للنيل، يحملون الكرابيج والفوانيس قبل المغرب، يمازحونه ويدفعونه دفعًا للماء، ويطرقعون فوق رأسه بالكرابيج!

يخلع صالح ملابسه القديمة ويهديها لحامل صرة الملابس، ويندفع للنيل سابحًا، يخرج من الماء مرددًا بعض الأدعية، وكأن النيل يبارك صلواتنا ودعاءنا. هنا عند الشط المنحدر نحو الماء أخذ صالح يتجرد من ملابسه القديمة، يخلع حياة ويلبس أخرى بعد أن يغتسل بماء النهر الذي شهد عرس أجداده، الواحد تلو الآخر، كل يأتي محملًا بدعاء يصبه عند النهر ويرفعه للسماء، كل يأتي يتجرد هنا، يتبرك قبل أن يبدأ حياة جديدة، قبل أن يتوجه لعروسه في زفة يحوطها الشباب، يحملون الفوانيس نحو بيت العروس.

صالح في المنتصف والدفوف تدق من حوله، شاعر يتقدم الجمع يمدح النبي ويردد أبياتًا من البردة. يتوقف الموكب كل فترة، تخرج عجوز تعانق العريس

وتطلق زغرودتها، تحمل كوب الحليب تسقي صالحًا منه، وتضع حبات التمر بيده وتدعو له بالبركة، تتمايل على وقع الطيران والدفوف، ليستأنف الموكب طريقه لبيتنا.

أجلس فوق المنصة، أسدل الغطاء على وجهي، يتناهى إلينا أصوات الحفل عند الساحة، صفوف من الشباب تقابلها صفوف البنات، يتمايلون على وقع الطار،تخرج فتاة بين الصفوف تمسك بطرف جرجارها، وتشد طرحتها باليد الأخرى تخفي وجهها وتبديه، والشباب يدقون الأرض ويتمايلون حولها، وصوت حسن جزولي ينداح حتى الدار.

تقوم أمي والنسوة بالرقص حولي، وأمي ترسل نظراتها الحانية كل حين، أراها من تحت ستري.

تقدم الموكب نحو الدار، انضم أبي للموكب مرحبًا بالعريس وأهله. دخل صالح للدار يحمل الكرباج والخنجر، وتقدم نحو منصتي، زغاريد النسوة لم تنقطع، وأمي ترش العطر فوق رأس العريس.

يأخذ ركنا ويصلي ركعتين يطيل فيهما السجود، وأنا أترقب من تحت ستري وقلبي يكاد يقفز فرحًا وخوفًا، قام صالح ورفع غطاء رأسي ولمس مقدمة جبهتي،

والشباب يطرقعون بالكرابيج، ويطلقون صيحات الصلاة على النبي، ثم جلس صالح بجانبي فوق المنصة المنصوبة وصوت حسن جزولي يبهج آذاننا:

جِيرْ وِيكِي تُودْ وِيرِي بُورْوي سَوَايانا كاشْكِسَا

جّوِي دُوجُورْ نا أُوجِيرُو أُوَانْ ما دُويْتَاكِيسّاه

تِنّا نِوِيرْتِي دُوجور تو وِيرْ وِيكِي آدُولْمِيساه

تِن دُولْتِي نا إنْجِرِيركُو تِرْ دُنْياجْ إيوُوسْمِسَاه

(24)

الأعيرة النارية تنطلق من ساحة العرس إيذانًا بمغادرة العريس الحفل، تقدم الشيخ أهل العريس نحو خيمة العروس. وقف أبوها وعمها وبعض النسوة في استقبال العريس وأهله بالطيب والبخور.

دخل الجميع ليقبل العريس رأس أمه، ولتدعو له أم العروس والعجائز بالبركة والذرية! يشرب وعروسه من سطل لبن يقدم لهما، ثم يخرج الجميع من الخيمة، ويظل العريس مع زوجته ليكشف عنها الستر المنسدل على وجهها، ويراها عروسًا لأول مرة.

(25)

مرت ليلة العرس كالحلم، ذكرت فضيلة بتفاصيل عرسها بالأرض القديمة منذ خمسين عامًا، زينب ظلت تنظر لابنتها تتمنى لها الستر وابن الحلال، تتنهد عندما ترى الواقع الذي فرض نفسه بقوة الجفاف والرحيل والشتات!

خبأت دمعة استقرت بمقلتها وهي تتأمل ابنتها الغضة، لا تعلم هل ستفرح كأم تلك العروس، ترقص مبتهجة يوم زفاف ابنتها الوحيدة!

عليّ ولد، رجَّال لا تخشى عليه، رغم طيشه أحيانًا ورغبته في الهجرة بلا سبب، آآآه ليتها تركته يسافر!

هاهو السبب حضر قويًا مباغتًا حتى قبل أن يقرر الولد أن يبقى أو يرحل.

لن تصمد أمام صدمات جديدة، فمنذ سنوات فقدت ابنها البكر، محمد زهرتها التي رعتها خمسة وعشرين عامًا ليأتي الموت المباغت فيحصد الزرع قبل أن تجني منه نوارة واحدة. انشق قلبها يومها وهي ترى الخبر على وجه زوجها، تناولت الهاتف لتصرخ فاقدة الوعي، ثم لتفيق على هذيانها والخرقة الباردة فوق الجبين المشتعل حزنًا، تسب حسين والبلد والشمال الذي جذب الولد إليه، ليعود جثة برصاصة مستقرة بين عينيه: قلت له مرارًا، يا ولدي لا جدوى من

مظاهراتكم تلك، أنتم أضعف من أن تهزوا عرش السلطان، أن تفتحوا باب السجان المجنزر! بييووووو، بييووو!

لم يستمع لي، شجعه أبوه بسكوته، شجعته أنا عندما حكيت له عن الظلم الذي أضاع أرضنا، ذهب الولد ظانًّا أنه سيأتي بالحق الضائع، وعاد بطلقة بين عينيه وحسرة تعتصر قلبي. آآه ما الذي نبش القبر الآن وأخرج صورته؟

وهل نسيته لحظة!؟أمر الله يا زينب، أمر الله، المهم الآن فاطمة، من لها بالأرض الجديدة؟ من سيتزوجها ونحن الذين انقطعنا هكذا؛ فلا عم ولا خال.

يا الله لا تطل غربتنا وشتاتنا.

(26)

لم يعد لبقائنا معنى، علينا أن نرحل الآن، الشيخ عرَّس ولده، والطريق طويل. استرحنا وبالغ العرب في الحفاوة بنا، ولكننا راحلون للجنوب، نحو النهر وعنده وإليه حياتنا، هذه الصحراء القاحلة تقتلنا.

استأذنا الشيخ في الرحيل مبكرًا قبل الشروق، عرض علينا البقاء لأيام أخرى حتى تبرأ قدم محمود، ما يزال ثقيل الحركة، قدمه المصابة تتورم أحيانًا ويلتهب مكان العضة!

حتى محمود نفسه أحس بالحرج وأراد أن نكمل طريقنا!

ودعنا الشيخ الذي أمر لنا بناقتين وزاد للرحلة، ملؤوا لنا سطلًا كبيرًا بحليب الماعز، وآخر بماء البئر.

النسوة ودعن فضيلة وزينب وفاطمة بالدموع، أهدت ابنة الشيخ فاطمة ثوبًا مزركشًا، فأخرجت فضيلة مصحفًا من بين صرتها وأهدته لزوجة الشيخ معتذرة.

رحلنا على عجل وتركنا وراءنا الكثير، تمنت لو كان الأمر كالسابق، لكانت أكرمت وفادتهم كما أكرموهم.

ودعنا الشيخ بحفاوة كما استقبلنا، أخرجت مسبحتي العتيقة وأهديتها للشيخ معتذرًا عن التقصير. سلمنا على الرجال الذين جاؤوا لوداعنا، توكلنا على الله، واتجهنا جنوبًا قليلًا!

الصحراء كما هي لا تتغير منذ أن تركناها قبل ثلاثة أيام، وستبقى لألف عام وعام، حياة قاسية جامدة!

هل أفتقد أرضي التي تركتها منذ أعوام، أم لم أعد أتذكرها؟

هل أصبح بيني وبين الصحراء عداوة منذ أن حملونا نحو هضبة لا ترى النيل؟ نحو بيوت إسمنتية ضيقة خانقة، ملتصقة؟ نحو أرض لا تنمو فيها غابات النخيل وأعواد الذرة الطويلة وسنابل القمح؟ أرض بلا سواقٍ وقواديس وشواديف، جدباء كتلك الصحراء، نزرع فيأكل الملح زرعنا، نسافر كي نرى النهر الذي كان يجري تحتنا يومًا!

أفهمونا أن الوطن يحتاج إلينا! كان علينا أن نضحي، ثم أداروا لنا ظهورهم، أخذوا الأرض والزرع والبيوت ورفات الأجداد!

بنوا السد الإسمنتي في وجه النيل الهادر، ذلك الوحش الذي لا يحب القيد والسجن، سجنوه وراء عيون لا تفتح إلا بمقدار، فارتطم وعاود الارتطام، صبغ الجدار السميك بطميه الذي فقدناه!

تُرى: هل أراد أن يتسلق فوق الجدران ويهرب للحرية؟

النيل الذي يجري منذ آلاف السنين من الجنوب بكل عنفوانه، أرادوا أن يوقفوا جماحه البري الهادر، فإذا به يدير ظهره لنا موليًا!

أحببناه يوم أن قدسنا وجوده، ذهبت يوم عُرسي أتبرك بمائه، وحملت فضيلة إليه يوم الصباحية، نغتسل هناك، أملأ كفي وأسقيها وتملأ كفها المخضبة بالحناء فأرتوي!

كان النيل شاهدًا وواعيًا وحنونًا، والآن، أين ذهب؟ لم يتبق منه سوى ممر ترقد أخاديد الطمي المتشقق بقاعه.

راح عليّ يغني عن النوبة الضائعة، ربما كان يقرأ حنيني الجارف إليها فوق وجهي:

"ووه نووبة ووه ماالي تنين ووه نووبة

التووبة وراركي انيتوو وونوبة التووبة

اندي يووو ويووووي ويووووي "

ارجووون صدقييه جووورسوو سديجييه انجسوو هيميجييه

مووجسر نووبة جييه ارجوون جنه جييه أووي جيه دبرا جيه... آنووشي

طوربة جيه إسي انجسووميييه

آمبااب كولييجيه تياار كووجيسمييه

ووه نيه ارجي بيجشري يا ناااس

آرجي جووليرميساا هوواا سيلليرميساا أووزيسا آويميساا

نووبة جوومسوميسا آنا كاجي ويلوميساا ابجي كاج اولميسااا

آنااا شئ "كوول مي اشكارتي مسي

اندي نووجر غربة نالمسي"

(27)

الشمس لا تكف عن إرسال لهيبها، والرمال تختزن كل الحرارة ثم ترسلها إلينا فتكوي بطون أقدامنا المتعبة! محمود يقاوم، يجلس بصعوبة فوق ظهر الناقة يتصبب عرقه، يمسك بقدمه المصابة كل فترة يعدل وضعها، يتأوه تأوهات يكتمها ولكنني أشعر بها، العنيد المتعب الذي لا يبوح كالعادة بألمه.

بدأت الريح تثور فجأة، دوامات من الرمال ترتفع من الأرض للسماء، تحمل العاقول والأشواك وتقذفها ناحيتنا، الرمال نفذت لأنوفنا، وتعذرت الرؤية، فعلا صوت الدليل، بعد أن توقف وأناخ الإبل وأمرنا بالاحتماء بالتلال القريبة:

- لن نستطيع المواصلة، الرياح قوية والرمال تعوق الحركة وتحجب الرؤية.

أبناء الصحراء يعلمون جيدًا متى يتوقفون ومتى يواصلون السير؛ حتى لو هبت الريح، للصحراء أسرار لا يعلمها إلا من تربى فيها، كما للنهر أسرار نحن فقط من عرفها.

النيل مخادع كبير، يعطي بلا حدود ثم يمسك فجأة يده السخية فيتشقق وجه الأرض، يسكن سطحه فلا يظهر منه إلا هدوء مصطنع وجوفه يدور كتلك الدوامات التي تعتري الصحراء الآن!

دوامات النيل أقوى، كانت تخدع البحارة دومًا فتقلب مراكبهم، ولا ينجو منها إلا من فطن لها، أو تلك السفن الكبيرة التي كانت تسافر من الشمال إلى حلفا جنوبًا، تحمل المسافرين والبضائع!

كنا ننتظرها في موعدها عند المحطة النيلية، نذهب إليها عن طريق البر أو بالمراكب ذات الأشرعة البيض المنتفخة بهواء الصيف اللافح، موعد عودة العاملين بالشمال الغني!

كان أبناؤنا يهاجرون للشمال منذ الأزل، يرسلون الحوالات والطرود تحملها سفينة البوستة كل أسبوع، فتتوافد النسوة على مكاتب البريد بالنجوع المترامية، كل منهن تنتظر خطابًا من زوج أو ابن غاب وانقطعت أخباره.

منهم من داوم على الاتصال وإرسال الطرود، ومنهم من أخذته العاصمة فتاه هناك، بعد أن تزوج بيضاء غضة؛ تجيد لف الملاءة حول خصرها بمهارة، تعرف عليها من خلال عمله سفرجيًّا عند أحد البشوات، أو بوابًا لعمارات الأكابر، وهي الخادمة الحسناء الغنجة، وقع في غرامها وتزوجها ناسيًا أهلًا ينتظرون كل أسبوع؛ عله يترجل من سفينة البوستة، أو يرسل خطابًا يبل ريقهم، فلا يظهر على ظهر السفينة القادمة من الشمال، ولا يرسل حرفًا يطمئنهم!

وربما اختلقت البيضاء سببًا لفراقه، والاستيلاء على ما جمع طيلة سنوات عمله، فتفتعل خناقة وأخرى، وتنعي حظها العاثر الذي أوقعها معه، وهي الجميلة التي ارتمى تحت رنة خلخالها جدعان الحي، ولكنها فضلته عليهم! وتولول نافشة شعرها، ويعلو صراخها فيتناهى صوتها للجيران بالغرف المتلاصقة فوق سطح البيت المتهالك، ولا تهدأ إلا بعد أن يقسم لها النوبي الطيب بألا يرسل لأهله مليمًا أحمر واحدًا، فتجره وقتها للصاغة تشتري أسورة أو كردانًا من الذهب، وتعود به لتنسيه أهله والجنوب كله.

(28)

الصحراء الآن ساحة معركة كبيرة، وكأن سنابك آلاف الخيول تضرب الرمال فتثور لتملأ وجه الصحراء الشاسع!

لا شيء هنا سوى صفير الريح ورائحة الرمال وذراتها الصغيرة تضرب وجوهنا في قسوة!

هل تدافع الصحراء عن نفسها؟ لسنا غزاة على كل حال، نحن الآن عابرو سبيل قذفتنا أرضنا، وجف ضرعها فارتحلنا، لم نغتصب يومًا أرضًا ليست لنا!

حتى بعنخي العظيم المنتصر، ذهب شمالًا يتبرك بالآلهة وماء النهر! لم يمكث ليعتلي عرشًا بطيبة؛ جنة الأرض وقتها، مدينة الشمس والحكم؛بل أدار دفات سفنه وعاد جنوبًا!

ربما كانت الصحراء محقة، ألم نصد هجوم المسلمين منذ أكثر من ألف عام؟ حاصرونا وضيقوا الحصار، لكن لم يستطيعوا اختراق حصوننا المنيعة جنوبًا!

كنا أمهر من يرمي بالنبل، رماة الحدق الذين دافعوا باستماتة عن أرض النوبة، وعقدوا صلحًا دام لسنين طويلة، جنود الجنوب الأشداء!

ثم يعود التاريخ ليدير وجهه، ويتناسى كل الحقائق التي لا تقبل الشك، ويكتب ما يمليه عليه المنتصر.

الحروب ليست دومًا بين أعداء يتنازعون قطعة أرض وكنوزًا مخبأة وسلطة تفرض نفوذها!

الحرب كانت ضدنا عندما أجبرونا على الرحيل قسرًا، عندما علت الأناشيد تمجد السد والزعيم، لنعود نحن بخفي حنين نستوطن أرضًا بلا هوية، جدباء كتلك الصحراء، ولا نيل يحتضن جنباتها!

الحرب هنا كانت خفية وماكرة، أناس مهمشون لا يملكون صوتًا وسط كل الضجيج والأغنيات، أصواتهم كانت تملأ الأثير، وأصواتنا كانت رجع صدى يتردد بين جنبات النيل والجبال!

تسمرت العيون تشهد رفع الحجارة العتيقة التي نقش فوقها التاريخ!

أتى العالم كله يبارك إنقاذ الحجارة، يجوبون النيل يحرسونها في رحلتها شمالًا بعيدًا عن زحف الماء، ونحن بالجوار على صفحة نفس النهر تحملنا صنادل على عجل نحو أرض جديدة لا نعرفها!

لم ينتبه العالم لنا؛ رغم أننا أصحاب تلك الأرض التي ستعتليها المياه بعد قليل! تلوح النخلات في توسل فلا يسترعي انتباههم سوى الأحجار العتيقة. حتى دموعنا لم يلاحظها أحد!

وتلك القروش القليلة، تعويض بخس عن أرض الذهب التي لا تعوض، عن رفات أبي المدفون تحت البحيرة الآن، لو أنهم أتاحوا لنا العودة لشاطئها، لكنت

وقفت هناك أبني بيتًا جديدًا، وأترحم على أبي الذي يرقد تحت تلك المياه الثقيلة.

(29)

ارتفعت شمس الظهيرة فوق رؤوسنا، الحرارة تلهبنا والغبار يكاد يخنقنا، بللنا خرقًا وغطينا بها أنوفنا. أنخنا الأبل وجلسنا نحتمى بجوارها، جلسنا ننتظر هدوء الصحراء، لا شيء جديدًا في الأفق ينبئ بانقشاع تلك الزوبعة!

حتى الدليل الخبير بأمور الصحراء جلس بعيدًا عنا كعادته يدندن من تحت لثامه، ينتظر مثلنا!

اصفر الجو وتغير الأفق، وكأن الأمطار ستهطل بغزارة، الصحراء شحيحة وبخيلة، كنا بحاجة لرذاذ يخفف عنا هذا العذاب!

تأوه محمود، وأشار لي فاقتربت، كان يمسك بقدمه المصابة وعيناه زائغتان، بينما ينز العرق من جبينه وينتفض جسده! أرحت رأسه على صدري ورحت أسقيه الماء وأنا أتلو القرآن في سرعة!

ضغط محمود على يدي ونظر إلي متمتمًا بعبارة لم أسمعها، اقتربت منه، صوته ضعيف مرتعش، تداخلت الحروف وتشابكت الجمل حتى حسبته يهذي، نظر إلي طويلًا، رفع يده بصعوبة وربت على كتفي، همس:

كنت أود أن أكمل الرحلة معك، ولكن يبدو أن الأجل قد حان، بلغ سلامي للنهر عندما تصله، أخبره أني قد حاربت من أجله كثيرًا، قاومتهم قديمًا حتى لا يوقفوا جريانه، وحاولت أن أقاوم الآن وأذهب للقائه، لا تنسوني هناك عند الشاطئ، ادع لي يا صالح بالراحة، فقد أتعبتني الدنيا كثيرًا.

التف الجميع حول محمود، فضيلة تسح الدموع في صمت، زينب وفاطمة ذاهلتان، حسين وعلي صامتان إلا من همهمات ونحيب خافت!

انعقد لساني، سورة ياسين التي حفظتها قبل العاشرة نسيتها، بسملت عدة مرات يس، يس.. أتلعثم وأقف مبهوتًا! أيرحل محمود؟ أيتركني بعد كل هذا العمر، هنا في هذه الصحراء القاحلة ونحن راحلان يستند كلانا على الآخر، نتجرع مرار الرحيل الثاني معًا؟ نتقاسم ذاكرتنا المشحونة بكل قصص الكُتاب والمدرسة ولعب الحارة وجمع البلح من تحت حيطان النخيل!

هنا وأنا أحوج ما أكون في شيخوختي لمن يقاسمني الماضي الذي ولى بلا رجعة، والحاضر الذي لا أعلمه والهجرة التي فرضها جفاف النيل علينا؟

الحشرجات تخنق صدر رفيقي ولا أملك إلا دموعي ساخنة تتخلل لحيتي، حشرجات كتلك التى أطلقها أبي وهو يرحل يوم أن هجّرونا عنوة، لم يحتمل أن يترك أرضه ونخلاته، ضم حفنة التراب بيده وذهب بلا عودة، لم أحتمل فراقه الممزوج بالرحيل، لم أحتمل أن أهيل عليه التراب الآن، وبعد أيام قبل أن يجف الماء حول قبره ستنهال شلالات الماء تغرق الرفات والجسد، لم أحتمل وقتها أن أتركه طعامًا لتماسيح النيل النهمة!

أتذكر يوم أن حملناه لمقابرنا ناحية الجبل، وأنا الذي ارتميت فوق القبر لا أريد أن أفارقه، أبكي كطفل لم يبلغ الحُلم، أعتذر لأبي وجدي وجدتي الطيبة!

سنترك رفاتهم بعد قليل، ظل هذا الكابوس يراودني كل مساء طيلة أعوامي التالية، كابوس التفريط برفات أهلي! وها أنت يا محمود، تريد أن تموت هنا وسط صحراء بعيدة فلا أجد سبيلًا لقبرك!؟

يا الله.. غامت عيناه، أغمضهما برفق كعادته عندما كان يسرح بفكره، تمتم: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، سقطت يده فجأة، وثقلت رأسه فوق حجري. أطلقت فضيلة صرخة ثم سكتت، لفنا هدوء عجيب!

أمطرت السماء رذاذًا خفيفًا، وصوتنا ينداح في الأرجاء: يس والقرآن الحكيم!

(30)

حفرت قبورًا كثيرة: قبر أبي، شيخ الكتاب، ناظر المدرسة، كنت أنزل داخل اللحد وأتخيل نفسي كهذا الميت، يكشفون الكفن عن وجهي ويوجهونني ناحية القبلة، يهيلون التراب فوقي فتظلم الدنيا فجأة! أي دنيا! تركتها منذ قليل! الآن سأواجه عملي فقط، من ربك ودينك ورسولك؟

والآن ذهب محمود بعد أن رُددت لأرذل العمر، ولم يعد باستطاعتي أن أحفر لحدك يا صديق، مادايم إلا وجه الله، متى سألحق بك!

آآآه! كم أتعبتنا الدنيا بين كر وفر وشتات ورحيل، أما من راحة؟

متى أرتاح وأنا قد جاوزت التسعين؟

أتكوم بجوار جسد صديقي، أتلو القرآن في ارتعاش وهم يحفرون لحده، جسد جديد سنتركه ونرحل، صبارة أخرى لن تجد من يسقيها، حتى أجسادنا البالية كُتب عليها الغربة!

ألقيت نظرة أخيرة على وجه محمود بعد أن غسلناه! لم تفارقه تلك الابتسامة طيلة حياته، رغم كل المرارة كان مبتسمًا، يوم ساقوه للمعتقل كان مبتسمًا، وعند الرحيل والشتات ظل مبتسمًا!

كنت أتشبث بابتسامته تلك، أنظر إليه فأطمئن، تربت عيناه على قلقي، أنهل من شجاعته التي رافقته حتى الموت، والآن على كتف من سأرتكز؟ ومن له بمنحي الطمأنينة من بعدك يا صديق؟!

أهلنا التراب فوق وجهه، قام عليّ بجمع الحصباء المتناثرة، رددنا: سبحان الله والحمد لله والله أكبر، أتممنا التسابيح ونحن نصفّ الحصى فوق القبر، دعونا كثيرًا، وبللنا القبر بقليل من الماء!

لم نجد جريدًا نضعه فوق القبر، ضنت الصحراء حتى ببعض جريد نصفه على عجل ونرحل!

حملنا متاعنا ورحلنا، لم أعد أقوى على البقاء هنا.

(31)

الليل ما يزال في أوله. الدليل يسير في المقدمة، وصابر وبرعي وحسنين يسيرون في صف بعده، يتلفتون كل فترة، قطاع الطرق منتشرون بكثرة، الاتجاه غربًا فيه مخاطرة كبيرة، تشهد هذه المنطقة منذ أزمة المياه عمليات سرقة وقتل، سمعنا عنها ونحن بالنجع، أناس خاطروا مثلنا ولم يصلوا أبدًا.

ابتلع صابر ريقه وقد لمح بقايا متاع متناثر على جانبي الطريق! يبدو أنه لأناس مثلهم فروا غربًا! تملكه الخوف وهو يفكر:

ليتني لم أطاوعهم واتجهت للجنوب مع الشيخ صالح، هل أعود أدراجي الآن؟ فات الأوان، والليل بدأ يهجم، والطريق موحش، لا أستطيع أن أسير بمفردي! وهذا الدليل الذي لا يتفوه بكلمة، هل من الممكن أن يكون رئيس العصابة التي تقطع الطرق على الفارين؟

اقترب صابر من برعي هامسًا: هل تعرف هذا الدليل جيدًا؟ بدأت أرتاب منه! لم يتفوه بكلمة منذ انطلاقنا.

نظر برعي إليه مستخفًّا: ألا تكف عن الخوف والشك؟ نعم دلني عليه قريبي الذي عاد بالذهب من الجبل، لا تقلق هو يعرف الطريق جيدًا، ثم إنها عادة

الأدلاء، هم قليلو الكلام، مهنتهم تفرض عليهم ذلك؛ حتى لا ينكشف أمرهم خاصة في هذه الظروف.

سكت صابر متمتمًا بدعاء، وبرعي ينظر إليه ويكتم ضحكه.

حسنين لا يتكلم، صامت كعادته منذ أن فقد أهله، هجمت عليهم عصابة من الهجانة واجتاحوا قريتهم ليلًا، وهو يسعى في الأرض يطلب رزقه كالعادة. ومن يومها وهو يلوذ بالصمت!

نلمح دموعه أحيانًا وقد تحجرت في مقلتيه، يخرج صورة متآكلة الحواف لولديه، يقبلها ثم يخفيها بحرص بسيّالته.

مسكين حسنين، أنا وبرعي لا أهل لنا، نجوب البلاد من أجل لقمة العيش، نكسب ونصرف ما نكسبه على المزاج، قرش الحشيش أصبح عزيزًا، لم نلف سيجارة منذ شهر، إإإإإيه، أما حسنين فكان يجمع القروش القليلة ويرسلها لأهله!

مسكين، يكاد يفقد عقله، أحيانًا أسمعه يتحدث لولديه، يشرد قليلًا، ويشير بيديه إشارات لا أفهمها، يبتسم ثم يبكي ويعود لصمته المطبق.

يا ترى كم يومًا سنسير، هذه الصحراء لا تنتهي، ربما يومين أو أكثر، المهم ألا يخرج علينا ولاد الكلب يسرقون الفلوس، سمعت أننا يجب أن ندفع إتاوات عند الجبل، كل منطقة ولها زعيم لا يسمح لأحد بالاقتراب إلا بعد دفع الإتاوة، حتى بعد أن يسمحوا لنا بالبحث معهم عن الذهب، يأخذون ثلث ما نجمع!

ولاد الكلب، كأنه جبل أبيهم، المهم أن نصل وبعدها تفرج.

الصحراء مترامية، لا شيء جديدًا، رمال ورمال وبقايا أمتعة وعواء ذئاب لا ينتهي. الريح ساخنة، والدليل ينهب الأرض ولا يلتفت إلينا، الجشِع الذي ساومنا كثيرًا، ونشف ريقنا قبل أن يرضى بالمبلغ الذي جمعناه!

الجميع الآن أصبحوا وحوشًا، الأرض توقفت عن إنجاب المزيد من الخير، والكل يتصارع من أجل البقاء.

سمعت من برعي عن حياة أخرى ناحية الجبل، أرض الذهب التي تقع على الحدود بين السودان وليبيا، الكل هناك يعمل بعيدًا عن أعين الحكومات، لو أن الأمر أصبح رسميًّا لنهبت الحكومات الذهب، والجبل، وابتلعت الكل في بطنها، ولن نحصل على قرش واحد!

تلفت الدليل إلينا بالكلام لأول مرة:

– اسمعوا اقتربنا من المنطقة الخطرة، العواصف الرملية هنا خطيرة جدًّا، الرمال متحركة، ولا يفترض بكم أن تبتعدوا عن الخط الذي نسير فيه!

توقف عن الكلام قليلًا، ثم أشار شمالًا بعين الخبير العارف بأمر الصحراء، وأردف بلكنته البدوية: هذي الصحاري بلعت جيشًا كاملًا قبل أكثر من ألفي عام!

عاد ليتكلم بلغة مختلفة غلب عليها طابع الانتشاء. أنا كنت أحد الأدلاء الذين رافقوا مجموعة من الخبراء ناحية سيوة وهم يبحثون عن بقايا جيش قمبيز العظيم! جيش كامل، من خمسين ألف مقاتل اختفوا ولا أثر لهم، دفنتهم الصحراء بكل بساطة منذ آلاف السنين، الرمال هنا خطيرة، والمجازفة معناها الموت، بقي القليل فقط ونجتاز منطقة الرمال المتحركة لنصل.

هل سنصل بالفعل، أم إن هذا الدليل يسوقنا للموت؟!لا أرى أي مظاهر للحياة هنا! أين هؤلاء الذين قالوا إن الصحراء تمتلئ بهم، وعمروا المنطقة التي تحيط بالجبل؟ أسواق تبيع البضائع للنازحين غربًا وتوفر الحياة للماكثين حول الجبل ينتزعون أحشاءه ويبيعونها بأسواق بعيدة، بعيدًا عن أعين الحكومات والشرطة!

ملأ برعي رأسي بترهات عن سيارات حديثة تقاوم رمال الصحراء تجوب المنطقة، ومعدات وعمال أشبه بموقع بناء ضخم!

سماسرة يبيعون الأحلام ويقايضونك على الجرام والقرش!

ولكن أين كل هذا من تلك الفلاة التي لا نهاية لها!؟ الكثبان في حركة دائمة، ننام ونصحو لنجد منظر الصحراء قد تغير، الرمال لا تهدأ عن الحركة، وكأن الأرض تحتها تهتز بلا توقف!

كلام الدليل زادني توترًا، بحر الرمال المتحرك، وجيش الفرس بكامله الذي ضاع هنا، بقايا متناثرة نراها كل فترة، تشي بمن فقد الطريق أو ابتلعته الرمال، أو مات عطشًا!

يا الله! كنا في مأمن من كل هذا، كان الرزق شحيحًا ولكنا كنا راضين، حكى لي جدي كثيرًا عن رحيلهم للعمل جنوبًا صوب أرض النوبة القديمة، النوبيون أُناس مسالمون، مرحبون كالعادة بالغريب والقريب، المضيَفة على الطرق تستقبل المسافرين!

عاش جدي هناك سنوات شبابه بين هؤلاء مطمئنًا، كان يعمل هو وبعض بلدياته مع مقاول أنفار يجلب العمال من قرى الصعيد، يتجهون جنوبًا بصنادل البضائع القليلة التي تحتاجها دكاكين النجوع، العسل والبصل، الأقمشة والسكر والشاي!

كان جدي يدور على البيوت يصلح الأسقف والجدران المتشققة! وبعضهم امتهن الصيد، يجوبون النهر بمراكبهم.

النوبيون – رغم ارتباطهم بالنيل – لم يحبوا السمك وصيده، كان الصيد حكرًا على أهل الصعيد، يستأذنون ويعتلون النهر طيلة العام.

حكى لي جدي كيف تبسم له الحظ عندما هجر النوبيون أرضهم ونزحوا غربًا حاملين قروش التعويضات القليلة، بلا بيوت ولا مأوى، إلا من خيام ضربوها وسط صحراء الناحية الغربية من النهر، يشاهدون أرضهم وبيوتهم تغرق شرقًا، كانت سنة التعلية ضربة حظ لجدي، الذي شارك في بناء ما يقرب من أربعين بيتًا!

جمع مبلغًا مكنه من شراء قطعة أرض ببلدتنا، وهجر النوبة واستقر ببلده! وها هي الدنيا تدور مجددًا وأنزح للجنوب بحثًا عن الرزق الذي ضاق والأرض التي جفت!

حتى الجنوب ضاق بنا وبأهله، فتفرقوا وتفرقنا نحن أيضًا!

أيمكن أن نحصل على الذهب حقًّا؟!تعبنا من العيش الناشف والبصل الذي أحرق صدورنا!

حتى الدخان، لم أحمل علبة بجيبي يومًا، أشتريها بالفرط، وأستنشق دخانها على مهل أخاف أن أحرقها فلا أجد غيرها!

على كل لا حيلة لدينا، ما الذي سنفقد أكثر من ذلك؟ إلا لو متنا!

وهل نحن على قيد الحياة؟ لا زوجة ولا أولاد ولا شيء، سريحة باليومية، نأكل اللقمة بالعرق وطلوع الروح!

يمكن الحظ يضحك، ليه لأ؟

(32)

الرمال تكاد تقتلع أرواحنا، تضرب وجوهنا بسياط لاهبة!

طلبنا من الدليل أن نستريح؛ فلم نعد نقوى على المسير.

حسنين لم ينقطع سعاله! تذمر برعي وأراد ان يستكمل المسير، برعي النهم الذي يحلم بالذهب ليل نهار، يكاد يهلكنا ليصل لمبتغاه، صحت به:

– ألا ترى حسنين؟ سيهلك الرجل إن لم نتوقف لنستريح!

وافق على مضض، ففرشنا أمتعتنا القليلة نحتمي من الريح السموم نوليها ظهورنا، نلوك بقية زاد شحيح، وبعض الماء.

أراد برعي أن نكمل المسير بعد ذلك، ولكن الدليل قال إن الريح سيشتد وسنبيت الليلة هنا.

أذعن برعي أخيرًا، متمتمًا في غضب: سنتأخر يومًا آخر.

الريح تحمل مزيدًا من الرمال، ننام على صوت فرقعة الحطب، وعواء الذئاب، وسعال حسنين المتحشرج.

تنتابني الكوابيس كل فترة، أُناس بوجوه ذئاب، وبنادق محشوة مصوبة لرأسي، أكوام من الذهب تلمع تحت ضوء الشمس، لا أستطيع أن أفتح عيني من شدة بريقها، الطريق طويل والعطش يكاد يهلكني، بقيت خطوات وأصل، أقاوم الريح والعطش والشمس الحارقة، أتقدم ناحية الكومة الكبيرة، أغترف وأغترف وأدس بجيوبي. برعي يزاحمني، وحسنين ما يزال يسعل، أملأ جوالًا من الذهب، أجره بصعوبة وأنا أبتعد، أحاول أن أتوارى عن حاملي البنادق، صوت الرصاص يصلني، أعدو سريعًا، برعي يحمل جواله ويهرب، حسنين يتعثر ويقع، أعود لأساعده، فيتبعثر جوالي، تتناثر قطع الذهب فوق الرمال، أسرع بجمعها، فتتحول لحصباء! أصرخ: أين الذهب؟ برعي يضحك ضحكته الخبيثة وهو يرحل، أصرخ ثانية، وأفيق على برعي وهو يلكزني: هيا سنواصل السير، تأخرنا.

(33)

الشمس الآن تتوسط السماء، ظهيرة الصحراء حارقة نسير حذاء الدليل، نستبين موضع أقدامنا قبل أن ندوسها، الرمال تلفنا بدوامات لا تنتهي، برعي أمامي خلف الدليل، وحسنين كعادته في الخلف، سعاله لا ينقطع، وحركته بطيئة، أبطئ خطواتي حينًا لأساعده، وأعود لأسرع قليلًا؛ حتى لا أفقد الدليل وبرعي، برعي الذي لا يهتم سوى بنفسه! منذ أن سمع عن جبل الذهب طار عقله، أعتقد أنه قال لنا سره فقط لخوفه من اجتياز الصحراء وحيدًا، لا أشك أنه من الممكن أن يبيعنا في أي لحظة مقابل جرامين من الذهب، وحسنين لا حول له ولا قوة، ولولا إصراري على مجيئه لكان برعي تركه ورحل، المهم الآن أن نصل ونجد فرصة هناك.

عدت من شرودي، لم أسمع سعال حسنين منذ فترة، لا بد أنه ابتعد ثانية، أبطأت خطاي، وقفت علي أراه يقترب، العاصفة شديدة تكاد تعمي عيني، عدت قليلًا أنادي عليه، لا شيء سوى صفير الريح وحبات الرمل تضرب بقسوة، أسرعت، استوقفت برعي والدليل!

أصرخ: لا أجد حسنين، أين هو!؟

الدليل لا يريد أن يعود، فالرياح لا تعطينا فرصة للالتفاف!

صرخت بهما، عادا بعد جهد، ورحنا نبحث، حتى آثار الأقدام مُحيت بفعل الريح، لا شيء هناك، أين حسنين؟

صحنا ولا مجيب، وكأن الأرض ابتلعته! أصرخ في الدليل ليفعل شيئًا، هز رأسه وأشار للصحراء، لم أفهم، حتى هنا يضن بكلماته القليلة: يجب أن نواصل، قالها ومضى وأنا بين ذهولي وغضبي وحزني، لا أعي ما يحدث!

عدت أمسك بتلابيب الرجل:

– خلاص ما في فايدة، لو بقينا سندفن معه، الريح قوية، والرمال تجري من تحتنا، ويمكن أن نموت أيضًا هنا.

أصيح به: كان ورائي، كنت أسمع سعاله المتواصل، شردت قليلًا، ربما أكون قد أسرعت الخطى، دون أن أدري، يا الله!

أنادي مجددًا عليه، يضيع صوتي وسط عاصفة الرمال!

برعي لحق بالدليل وأنا أتلفت أبحث، ثم أعود لأسير بحذائهما، تسيل دموعي!

هل يمكن أن يكون على قيد الحياة؟ هل خذلناه بتركنا له؛ أم هي رغبته في لقاء أهله، ذهب لهم بإرادته؟

هل أبطأ خطاه ليضيع ويموت وتبتلعه الرمال والصحراء؟ كان مريضًا وبائسًا، كان يتحدث كثيرًا عن ولديه ونحن لا نستمع، ظنناه يهذي، سمعته كثيرًا يردد: قريبًا سألحق بكما!

هل فعلها؟ غافلني ورحل للأبد؟ يا الله، سامحنا يا حسنين، اغفر لي يا رب.

متى سنصل؟ هل ستمهلنا الصحراء وقتًا؟ أم ستأخذنا واحدًا تلو الآخر؟ تغرينا بالذهب ثم تبتلعنا الرمال بلا عودة ولا حلم ولا ثراء؟

أي ثراء هذا الذي أرتجيه؟ عشت نكرة عمري كله، جائعًا وسط مجموعة من الجوعى ! أكان منفانا الاختياري، أم أرضًا عشقناها؟

الصعيد الفقير من كل شيء، الجنوب المهمل، قرى تعيش على الكفاف، منسيون إلا وقت الانتخابات!

يدورون علينا ببعض المعونات مقابل أصواتنا الرخيصة، ثم يختفون هناك ويضيعون في زحام العاصمة، يتكسبون من ورائنا، ونظل نحن نحارب الجوع وحدنا!

عملت بالأجرة تحت الشمس أجمع نوارات القطن الزاهية قبل أن يوقفوا زراعته لحساب الأكابر والمنتفعين! تنقلت بين النجوع أشبع يومًا وأجوع أيامًا،

لم أحلم بأكثر من لقمة ومأوى، أعمل باليومية، تأقلمت مع حياة العوز والجوع، حتى ضربنا الجفاف!

إإإإإإإإإإإإيه! رضينا بالهم ولم يرض بنا، حتى الأرض لفظتنا! وهذه الصحراء التي لا تنتهي، ليتني تبعت الشيخ صالحًا جنوبًا!

ولكن برعي أقسم أنه رأى الذهب مع قريبه، ذهب كثير، كفيل بتحويل حياتي كلها لنعيم، أنا الذي لم أر الذهب يومًا! حتى كردان أمي الذي كان يلمع برقبتها، كنت أحب أن أتلمسه وأنا طفل أستند على صدرها، رهنته عند أم برعي الدلالة، كانت تقرض النجع بالفايظ!

برعي خسيس كأمه تمامًا، جشع، يسرق مال النبي، لو أمكنه لباعني كالعبيد، يجب أن أحترس منه، لم يذرف دمعة واحدة على حسنين، عديم الأصل صحيح.

آآآه! سأجن حتمًا إن بقيت أتحدث لنفسي هكذا، الأفضل أن أسير بمحاذاة برعي والدليل، يتهامسان دومًا، وأنا لا آمن برعي على كل حال.

بدأت الصحراء تغير من صورتها، اختفت الرمال الهائجة تدريجيًا: الأرض أصبحت أكثر صلابة، والصخور المتناثرة ترسم فوق وجه الأرض ظلالًا مختلفة،

سلاسل الجبال بدأت تشق الأفق المصبوغ بحمرة المغيب، حفرت الكهوف قلب الجبال فبدأت وكأنها بيوت أشباح تستعد للظهور عندما يهبط الليل!

المكان موحش وصوت الريح يعود رجعه يتردد بين الجبال الشاهقة!

تهامس الدليل وبرعي فاقتربت لأستمع، نحن على مشارف الجلف الكبير، ربما نصل للجبل غدًا إن أسرعنا المسير، سنبيت الليلة هنا، ثم نعاود الانطلاق عند الفجر، تحسست سلاحي وتكومت بجانب برعي.

أحكم اللثام حول وجهي، أغط في نومي المثقل بكوابيسي، ليهبط الليل الثقيل فوق رؤوسنا. أصوات وهمهمات تنساب لأذني، تشدني من كوابيسي ونومي المتقطع، حسنين ينادي عليّ بصوته المبحوح، أحاول أن أصل إليه فلا أستطيع، تتحول الأرض فجأة لهوة كبيرة أكاد أسقط داخلها!

أتمسك بالصخور الناتئة، يسعل حسنين ويبصق دمًا يغطي وجهه، يعاود الصراخ، أحاول وأحاول أن أمد يدي إليه! تنزلق قدمه ويسقط ويختفي إلا من رجع صوته يتضاءل رويدًا! أصحو من نومي ويدي تضغط على سلاحي المخفي بملابسي، أصرخ صرخة مكتومة وأفتح عيني على غرباء ينيخون إبلهم بجواري، والفجر يشق الأفق، لا أرى برعي والدليل! أين هما؟

(34)

الغرباء يلقون عليّ السلام وأنا بين النوم واليقظة، لا أزال تحت تأثير الكوابيس والأحلام! يتقدم أحدهم، يتحدث بلهجة بدوية. أحاول فهمه بصعوبة، يشير نحو الناقة التي تقترب منا، يسوقها شاب ملثم، تبرك الناقة ببطء، فوق ظهرها شخص هزيل يتكئ على سنامها، لم أتبين ملامحه وسط غبش الفجر، يسألني الرجل عنه، أقترب لأتبينه!

أصيح وأنا أهزه: حسنين، حسنين! يفيق من بين إغماءته وهو يسعل ويبتسم بمرارة كبيرة. تنهمر دموعي وأنا أسنده لينزل من فوق الناقة، أجلسه على مقربة ليعود ليغفو ثانية، يقترب البدوي مني ويضع يده فوق كتفي وأنا أنتحب، يصيح بي بلهجة آمرة:

– وحد الله يا رجل، صاحبك محظوظ، لولا مرورنا وقت العاصفة لما استطاع النجاة، سيكون بخير إن شاء الله، هل كنتم متجهين للغرب؟ ما الذي دفعكم للمخاطرة وقت العاصفة هكذا؟

أخرجتني أسئلة الرجل من شرودي، أين برعي والدليل؟ أدير بصري بالأنحاء، ولا أثر لهما!

أسأل الرجل عنهما، فيجيب بأنه لم يجد غيري متكومًا هنا عند مجيئهم!

هل فعلها برعي النذل؟ هرولت لحاجياتي أفتش كالمجنون، القروش القليلة أخذها برعي، استغل نومي وسرقني ورحل، برعي النذل الجبان، كان علي أن أفهم!

تكومت بجانب حسنين والأرض تميد من تحتي، والبدوي الطيب يقف فوق رأسي وعلامات الدهشة على وجهه.

هل سأجتاز الصحراء وحدي، حسنين لن يقوى على المسير، ما العمل؟ حتى الطريق لا أعرفه، الدليل النذل كبرعي، كنت أخشاه من أول الطريق، وها هو يبيع نفسه لبرعي!

هل أظل هنا حتى أموت؟ هل أعاود السير؟ وإن ضعت، فسأموت أيضًا! يا الله! ليتني أجد هذا البرعي أمامي الآن، سأمزقه بأسناني، ولن أتركه إلا جثة هامدة!

تلفت حولي: لا شيء إلا الصحراء نفسها، الجبال والكهوف، أي اتجاه سأسلك؟ هل أسأل الأعرابي عن الجبل؟ هل أكشف له سري، أم أجعله يحملنا معهم، وما أدراني عن وجهتهم؟

وهل سيحملنا بلا مقابل؟ لا أملك شيئًا الآن!

الرجل يستريح ويريح الإبل، لا بد أن أتصرف قبل أن يرحل وإلا فسأموت أنا وحسنين.

قطع شرودي سؤال الرجل المفاجئ عن وجهتي. صمت قليلًا: هل أكاشفه بوجهتي عله يحملنا لهناك؟! لا حل لدي، في كل الأحوال أنا ضائع ولا حيلة أخرى، لا مفر من ذلك.

المزيد من الإبل تتوافد، باقي القافلة بدأت في الوصول، صنعوا دائرة كبيرة، بركت الإبل تستريح وأخذ القوم ينزلون من فوق ظهورها!

عالم كامل، شيوخ وأطفال ونساء، فرشوا متاعهم في ظل الجبال، انطلق الأطفال يلعبون وقد علا صياحهم الفرح رغم حرارة الجو، الصحراء بيتهم الذي لا يعرفون غيره، قوم رحل يضربون خيامهم أينما ينبت العشب، يسوقون أغنامهم للرعي، ويحملون بيوتهم فوق ظهور الإبل، أينما أرادوا ضربوا أوتادها بالأرض. الصحراء كلها ملك لهم، لا سور ولا قوانين.

هل سيبيتون هنا الليلة وغدًا يكملون سيرهم؟ اقتربت من الرجل المنهمك في إشعال نار أسند فوقها قدرًا كبيرًا مملوءة بالماء! أطلقت كلماتي بسرعة، خفت أن تخونني شجاعتي وأتراجع، كنا متجهين لجبل الذهب غربًا، أنا وحسنين الذي

وجدتموه خلفنا تائهًا، وبرعي النذل الجبان الذي استمال الدليل واشتراه ورحل معه، استغل نومي وفقدنا لحسنين ورحل بعد أن سرق مالي!

نحن من الصعيد، ضربنا الجفاف كما ضرب الأرض كلها، كنا نعمل بالجنوب ورحل كل من في القرية، سمعنا عن الذهب وخاطرنا، فهل من الممكن أن تحملنا إلى هناك؟

أنا لا أملك مالًا، فقد سرق برعي كل ما أملك، ولكن لو تركتنا هنا سنموت أو تفترسنا الذئاب! أكملت كلماتي بسرعة وكأني أخاف أن أنسى!

تطلعت للرجل المنهمك بعمله، والذي على ما يبدو لم يسمع كلمة مما قلت، وقفت قليلًا أنتظر الرد! ثم تكومت على خيبتي بجوار حسنين المغمى عليه، يفيق لحظات يهذي بكلمات لا معنى لها، أسقيه الماء ليعود لإغماءته.

شارفت الشمس على المغيب وأنا على حالي، أنظر للقوم المنهمكين بحياتهم، وكأنهم لم ينزلوا عن ظهور النوق منذ قليل!

اعتراني هم ثقيل وأنا لا أعلم من حالي شيئًا.

تناهت لسمعي ضحكات الفتيات على استحياء، وهن ينظرن لهذا الغريب المذعور وسط هذا العالم. وقتها فقط أحسست بالغربة والوحدة والضياع:

من أنا؟ هذا الغريب المنقطع بلا أهل ولا ولد! لو مت الآن فمن سيبكيني؟من سيقف فوق قبري يدعو لي؟

حتى في موتي سأرحل بلا أحد يذرف دمعه لفراقي، ما لهذه الوحدة تأكلني كما تأكل النار هذا الحطب بلا رحمة؟!

عشت حياتي بلا أنيس، صوت يرد صدى صوتي، يد تناولني شربة ماء في يوم قائظ، امرأة أتدفأ بأنفاسها في ليل الشتاء الطويل، ولد يعدو كهؤلاء الصبية تحت أقدامي، ويشب بين يدي ويحمل اسمي الذي سينقطع من الدنيا بموتي.

هل أبقى مع هؤلاء القوم أتزوج واحدة من بناتهم؟ هل يقبلون بفقير معدم مثلي، أم أواصل لعلي أجد الذهب فيتغير بؤسي المزمن؟

أفيق من أفكاري على يد الرجل تمتد إلي بطبق الطعام. يتكلم بلكنته البدوية السريعة، خذ كل وأطعم صديقك! له يومان لم يأكل، وأمامنا مسيرة يوم قبل أن أوصلك لمبتغاك!

تبسم الرجل وترك صفحة الطعام بيدي، واتجه ناحية النار في المنتصف!

جلست بجوار حسنين أوقظه ليأكل وأنا في ذهولي! سيحملنا الرجل للجبل، سننجو! لا حاجة لبرعي النذل والدليل الانتهازي، الحمد لله.

(35)

لم أنم ليلتها، تقلبت كثيرًا، القوم حولي شملهم سكون عجيب، بعد المغيب بقليل والشمس تلملم آخر الخيوط، سكنت الحركة تقريبًا، الإبل الباركة توقفت عن الرغاء، الصبية المتحلقون حول النار داعب جفونهم وسن لطيف جلبه نسيم الليل البارد، توقفوا فجأة عن الحركة والصراخ، تكوموا بجوار أمهاتهم وراحوا يقاومون بوادر النوم المتسرب لجفونهم!

قام الرجال يحزمون المتاع فوق الإبل الساكنة، الكل يتأهب للرحلة قبل الفجر، وأنا الساهد الوحيد وسط هذا العراء، أخاف النوم فتعاودني كوابيس برعي والجبل والبارود، كلما حاولت أن أبعد هاجس برعي من رأسي، يطل عليّ بفعلته فيشتعل كبدي وتتحرك يدي تتحسس سلاحي المخبأ بملابسي!

هل سأقتله إن رأيته؟ أم سأضعف أمام توسلاته؟ هو كالثعبان يتلوى ليحصل على ما يريد، وهل نريد إلا الذهب؟! أنا وهو وحسنين وغيرنا!

وهل تركت الدنيا لنا خيارات أخرى؟ حتى برعي النحس ضيع ما تركته له أمه على الحشيش والعرقي والقمار، برعي نجس وفلوسه حرام هو وأمه، إإيييه المال الحرام يضيع لو تل فلوس!

وهل سعينا وراء الذهب حلال؟ وما الحلال فيما يحدث حولي؟

هل هذا وقت حلال وحرام، الكل ينهش الكل، كفي طيبة يا صابر، طيبتك جعلت برعي يغدر بك، وهل أنت الشيخ القناوي تفتي بالحلال والحرام، بركاتك يا قناوي، حتى بركات القناوي لم تعد تفلح، الموت والخراب حل بأرضه وهو تحت القبة لم يتحرك ولم يمنع الجفاف!

استغفر يا صابر، يبدو أنك بدأت تهذي، استغفر ونم، أمامك سفر طويل.

الفجر يسفر، والإبل تسير الهوينى فوق الرمال الساخنة، تتلوى كثعبان طويل يفترش وجه الأرض! يميل الحادي فيميلون، الإبل لا تحيد عن طريقها، صف (ملضوم) كعقد لا تنفرط حباته إلا عندما تبرك!

أرحت حسنين فوق إحدى النوق التي قدمها لنا البدوي تحملنا، وسرت بجانبه، الرجل يتقلب بين غيبوبة ويقظة عابرة، يهذي قليلًا ليعود لسبات عميق، لا أدري أهروب هو من واقع عاد إليه مرغمًا؛ بعد أن أنقذه العربان وقد كان سيلتقي أهله بعد قليل، أم من تعب ألم به؟ يومان تحت الشمس والرمال ضائعًا بلا ماء ولا زاد!

عبء جديد فوق كاهلي، ولكن لن أتخلى عنه، يكفي الرجل ما لاقاه من صلف الدنيا معه، وغدرنا به عندما تركناه في العراء وحيدًا يصارع الموت.

هانت يا صابر، أهون على نفسي التي أرهقتها الحياة، لم أر يومًا جيدًا، أيامي كلها كانت متشابهة، شقاء وشقاء، أبي الذي تزوج على أمي، جذبته حسناء صغيرة، لم يستطع المقاومة، ارتمى بأحضانها وترك لها نصف الفدان الذي كان يملك، سترنا الذي كنا نعتمد عليه!

رحل أبي وتزوج الفاتنة، وتركنا نحن بلا شيء، أجراء في غيطان الغير، استدنت لأزوج أختي، أسترها بدلًا من العيون المتلصصة وهي تقف تحت الشمس وتميل لتلتقط لوز القطن، وألف عين تتفحص جسدها اليانع الغض، وألف شجار أشعلته، وألف حسرة سكنت قلبي حتى سترتها! لم أجد من يقرضني إلا أم برعي، أرد المال بالزيادة، والمرأة لا ترحم عوزي وقلة حيلتي! وبرعي الكلب تظاهر بأنه صديقي، وأنا لم أجد غيره ينقذني من ورطة الدين والحاجة!

المهم أني سترت البنت وزوجتها، وأمي المسكينة لم تحتمل الفرحة ففاضت روحها بعد أن اطمأنت، ولم يبق لي أحد! لم يبق لي الآن إلا حلم الوصول للذهب!

سأقتل برعي أولًا، سأقتل النذل وأريح العالم منه ومن أمثاله، بعد أن يجمع ما سيحصل عليه، سأقتله وأحصل على كل ما يملك، هو يستحق القتل، هو وأمه المرابية الجشعة، هو وكل القرية الجبانة المتلصصة، هو والعالم الذي تركنا للجوع!

صوت الحادي يرن في أذني والعير تتتبع اللحن، وأنا السارح في ملكوت أفكاري، والنغم يرن حولي:

يا غافل الدنيا شقاء..الله على الدنيا يعين

تمشي بيان ومع تقاء..واللي خفى منها يبين

واللي بها زم ورقاء..لا يأمن الدنيا تشين

كم واحدٍ فيها هقاء..هقوه تغر الجاهلين

كم فرقت جمع أصدقاء..كانوا بها متكاتفين

دنيا بلا دين محقاء..والعاقبة للمتقين

لا بد للخالق لقاء..سبحان رب العالمين

نفنى ولله البقاء..فردٍ صمد ماله وزين

(36)

النجع ساكن إلا من نباح كلب بين ساعة وساعة، وخوار بقرة تدور حول نفسها بالساقية ترفع الماء وتصبه نحو الأرض.

الكل نائم بقيلولة الظهر، والجو حار خانق. لم أستطع النوم!تسللت من البيت، أبي وأمي نائمان، أحدث الباب صريرًا كاد يوقظهما!

كم مرة ألحت أمي على أبي أن يصلحه، أو أن ينقد أحد الصعايدة الذين يجوبون النجوع لهذه الأعمال فيقوم بالمهمة.

أفلتُّ تلك المرة دون أن يوقظ الباب اللعين أبي فأنال عقابي كما في المرة السابقة. مررت ببيت محمود فوجدته يغلق باب بيتهم بهدوء. عدونا نحو حيطان النخيل قرب النهر، انتظرنا هناك عند المصطبة الكبيرة نلتقط البلح المتساقط، ونزدرده ونحن نضحك.

أبو محمود كاد يكتشف تسلله، قام ليشرب عند المزيرة ومحمود يهم بالخروج من الباب، لولا أنه عاد أدراجه سريعًا نحو غرفته وارتمى فوق العنجريب يتصنع النوم، ظللنا نضحك ونحن نتوقع عقابًا ككل مرة نتسلل فيها وقت الظهيرة لنلعب قرب النهر.

تأخرت فضيلة، حاولنا أن ننشغل باصطياد القمريات والعصافير، كنت ماهرًا بالتصويب، كم من مرة عدت لأمي بحصيلة صيدي من القمري فتنهرني وتقول: حرام عليك يا صالح، سيب الطير، فأطلقه وأعود مجددًا للعب بالنبل والتصويب.

كان الأولاد يلتفون حولي ويصفقون عندما أصوب، وكان أبي يضحك ممازحًا: أنت حفيد رماة الحدق يا ولد!

تأخر الوقت ولم تظهر فضيلة، خفنا من أن تكون قد منعتها أمها، إذ لم تتأخر من قبل على موعد لعبنا السري.

استبد بنا القلق، هل نذهب لبيتها؟ وكيف نفسر سؤالنا عنها في مثل هذا الوقت والكل نيام؟ أتكون أمها التي منعتها، أم يكون غول النيل خطفها؟

ارتعشت عندما تذكرت قصة فاطنة السمحة والغول، ألم تخرج في وقت القيلولة والشمس فوق الرؤوس لتسقي أغنامها، وما إن وصلت لأجمات النخيل حتى هجم عليها الغول، وأخذها لبيت مهجور وربطها وسط كومة العظام؟

يا ويلي يا فضيلة؛ أيكون الغول أخذك كما أخذ فاطنة السمحة؟

التفتُّ لمحمود وأنا أرتعش وأشير للبيت المهجور أعلى التلة الشرقية، وأسر له بخوفي! فارتعد هو الآخر، لكننا كالمنومين سرنا باتجاه البيت متلاصقين نرتعش من الخوف!

التلة بعيدة، والشمس تلهب رؤوسنا، والعرق يتصبب فيحرق عيوننا الجاحظة من الخوف.

صعدنا التلة بصعوبة، واقتربنا بحذر من البيت المهجور، هذا البيت الذي لا نعرف له صاحبًا منذ أن وعينا الدنيا! مجرد جدران متهدمة وبقايا سور تقف فوقه الغربان، تنعق فيزيد خوفنا، الظلام داخل البيت لا يظهر أي شيء.

تمتم محمود: على الأقل لدينا وقت حتى المغرب، الغول لا يبدأ بأكل ضحيته إلا عند مغيب الشمس!

وقفنا خارج السور المتهدم ننادي: فضيلة، فضيلة، ولا مجيب!

استجمعنا شجاعتنا، وأمسك كل منا بالآخر، فعبرنا السور المتهدم. خشخشة أوراق الأشجار الجافة تحت أقدامنا أفزعتنا.

اقتربنا من الباب الخشبي المتآكل، ودفعناه برفق فأحدث صوتًا عاليًا، انفتح الباب على ظلام لا نكاد نتبين منه شيئًا، ارتعشنا ونحن نهمس:

– فضيلة، ننادي بصوت مخنوق مرتعش!

دخلنا البيت نتحسس الجدران خائفين أن نتعثر بالعظام الآدمية التي نهش لحمها الغول، لا شيء سوى الظلام ورائحة العطن والتراب!

تعثر محمود وسط الظلام، وسقط على وجهه ليتحسس بعض العظام المتكومة بجانب الجدار، صرخ وصرخت، وهربنا مسرعين وقلبانا يكادان يقفزان من صدرينا نحو السور، ثم قفزنا فوقه لنجد أنفسنا خارج البيت!

هبطنا التلة نحو غابات النخيل ننظر وراءنا، وكأن الغول سيطاردنا، وما نزال ننادي على فضيلة بلا توقف!

جاءنا صوتها الرقيق من بين النخلات، وهي منشغلة بجمع الرُطب من الأرض، اقتربنا غير مصدقين، وهي تبتسم متسائلة:

– أين كنتم؟ انتظرت كثيرًا!

نظرنا لبعضنا ضاحكين، وأجاب محمود: كنا نتسابق بين النخيل وأنا فزت على صالح!

لكزني ضاحكًا، ثم أكملنا اللعب، ولم نر يومها غول فاطنة السمحة، ولا سمعنا عنه ثانية.

(37)

أفقت من سباتي والعرق يتفصد عن جبيني، وفضيلة تهزني، وتستعيذ من الشيطان الرجيم: صالح قوم يا صالح، بسم الله، مالك؟

أسمع صوتي يأتي من بعيد، البيت وفاطنة السمحة: محمود هيا، اجر يا محمود، اجر!

تمسح فضيلة عرقي عن جبيني وتقرأ فوق رأسي الفاتحة. حسين يسقيني بعض الماء وأنا بين الحلم واليقظة، أرى أشباحهم فوق رأسي، وأراني أعدو بين بساتين النخيل ومحمود يلحق بي.

فزع يعترينا من البيت والغول، الحلم يبتعد وتظهر ظلال الأشخاص حولي والشمس تميل للغروب!

أين أنا؟ مانزال بتلك الصحراء العقيمة، ورائحة الرمال حولي، وصوت الريح يعوي بلا توقف، أدير بصري أبحث عنه فلا أجده!

أهم بالسؤال عنه فيلوح لي حسين وقد أرخى عمامته حدادًا! أستعيد ذاكرتي المشوشة بفقد صديق تركناه خلفنا وسط هذا العراء بلا شاهد قبر وصبارة، وبلا طريق نهتدي به إن أردنا الترحم عليه وقراءة الفاتحة!

أي عذاب هذا الذي حل بي آخر العمر؟ لله الأمر! أستكين كطفل على صدر فضيلة، تسقيني الماء وتمسح فوق رأسي، الكل واجم، والسكون يلفنا إلا من فرقعة الحطب، ودندنة الدليل التي لا تتوقف.

(38)

أغمض عيني وأتنهد طويلًا: يااا الله، لم أعتد هذا الضعف، كنت وما أزال هذا الصلب الذي مرت عليه النوائب الواحدة تلو الأخرى:

ماتت أمي بعد أيام من زواجي، ودفنت أبي الذي سقط صريع التهجير الجائر! وكنت الصلب الذي لا أهتز، أحزن ثم أقوم وأحارب مرات ومرات، تحملت عبء القرية لسنوات طويلة، احتضنت البيوت وساكنيها ولم يفتر عزمي!

كنت ألجأ لمحمود دومًا، يبتسم تلك الابتسامة الحنون، ويتحدث بهدوئه المعهود! كان العكاز الذي يبتغيه شيخ مثلي بآخر العمر، صديق تخيلت أنه لن يتركني إلا على باب القبر، سنموت في يوم واحد كما ولدنا في سنة واحدة، التصقنا كالتوأم، كانوا يتندرون على أحدنا إن وجدوه وحيدًا دون الآخر، وها هي الأقدار تأخذك قبلي يا صديق العمر!

أعلم جيدًا ما الذي كنت ستقوله لي لو أتيتك شاكيًا رفيقي الذي تركني عند نهاية الطريق، أكمل سويعاتي الباقية وحدي!

كنت ستصر عليّ أن أكمل الطريق، أقوم وأتعكز على ذكرياتي معك وكلماتك وروحك المقاتلة، كنت ستنهرني بلطف وتشير لي جنوبًا حيث الراحة هناك عند النهر!

أتذكر كلماتك جيدًا منذ أربعين سنة، في رحلتنا نحو الشمال بقطار الصعيد والنهر يتبعنا موازيًا خط الحديد، يبتعد حينًا، ثم يعود يلتصق بالأراضي الخضراء التي تناثرت فوقها نوارات القطن الأبيض، تقلب الكتاب الضخم بأوراقه الصفراء المتآكلة الحواشي، تتلو عليّ بعضًا من أناشيد النيل:

المجد لك أيها النيل الذى ينبع من الأرض ويحمل الخير لمصر

وعندما تفيض يعم الفرح البلاد

أنت تطفح فتسقي الحقول، وتنعش القطعان، وتمد الناس بالقوة

إذا تأخرت بنعمك توقف دولاب الحياة

وإذا غضبت حل الذعر في البلاد

يا سيد الأسماك ومنبت القمح والشعير والذرة

أنت الذى يخلق كل جميل

الشباب والأولاد فرحون جذلون

يحبونك أيها الملك

وأنا أنظر لهذاالمفتون بالنيل، يلتهم كل المعرفة التي توصله إليه، أنت النوبي الذي ارتبط بهذا الشريان...أكثر من غيرك!

ألهذا السبب كنت تقرع أبواب السلطة ليلًا ونهارًا تقاوم بناء السد الأصم؟

اعتبروك مجنونًا، مارقًا! فكيف لهذا الجنوبي الأخرق أن يقاوم مشروعًا قوميًّا جيشوا له كل الإمكانات؟

كنت تقلب صفحات الكتاب وتبتسم لي قائلًا: النيل سيصمد يا صالح، سيقاوم، كيف لهذا الكيان أن ينتهي؟ ربما سيغرق بيوتنا ولكنه سيبقى!

وهؤلاء النوبيون البسطاء، ألم يوقدوا الشموع ويلقوا بالطعام للدجري الطيب، ليحفظ أبناءهم؟

ألم تذهب أنت يا صالح للنيل يوم عرسك تتبرك بمياهه؟

تسرح بعينيك الدامعتين، وتعود لتقول لي: سأظل أدافع يا صالح عن أرضي، لن أتركهم يأخذوها بسهولة، وأنا المشفق عليك من كل هذا!

يهتز القطار فيبعثر قلقي عليك حين ألمح هذا الإصرار الذي يسكن عينيك الشاردتين، أحوقل وأستغفر، وأستند على كتف فضيلة:

– هيا، يكفي، استرحنا كثيرًا! أشير للدليل: فلنكمل السير يا ولدي، محمود يريدنا أن نرسل سلامه للنهر جنوبًا.

(39)

آآآه، الجنوب، الأرض التي لا نعرف عنها الكثير، ربما تجمعنا لغة تتشابه مفرداتها، نهر واحد ربطنا قديمًا، أرض كانت لا تفصلها حدود وأسلاك شائكة وعسس يقفون بالمرصاد للعابرين جنوبًا وشمالًا!

كنا إلى عهد قريب وطنًا واحدًا. فلعنة الله على من فتتونا قطعًا صغيرة يسهل قضمها وابتلاعها، وزرعوا كثيرًا من الشكوك بيننا!

تنازعنا على حدود هم رسموها بأقلامهم المسمومة، ثم تركونا نصرخ في وجوه بعضنا: تلك الأرض لي، بل لي أنا!

جاءت حكومات ورحلت أخرى، تؤجج الفتن وتنادي بقوميات مقيتة وتتناسى الوطن الكبير!

والآن، تُرى سيرحبون بنا؟ هل سيفتحون الحدود ويزيلون الأسلاك الشائكة من أمامنا! أم سيوجهون بنادقهم صوب وجوهنا التي تحمل نفس الملامح؟

هناك عند وادي حلفا حيث ضاعت أرضهم تحت البحيرة العظيمة مثلنا، أُناس أحسوا بفقد الأرض، رحلوا كما رحلنا، بالتأكيد سيعرفون، سيشعرون بشتاتنا الآن، سنحدثهم بلغة يفهمونها، لغة النهر والأرض الواحدة، والعرق الذي يسري بدمائنا، لن يرفضوا على كل حال لاجئين مثلنا، شيخًا يودع الحياة، وزهورًا ما تزال تأمل في الغد، هم أبناء النهر كما نحن ولن يرفضوا ضيافتنا، أثق بذلك.

يعاودني الشجن كلما اقتربنا من الجنوب، كأن روحي تعود لجسد أنهكته الغربة، منذ أن فارقت الأرض شابًّا يافعًا حتى اشتعل الرأس شيبًا!

كنت أبحث عن ملاذ طيلة العمر، تلك السنون التي قضيتها بالمهجر بلا حاضر سوى ذاكرتي القوية الحاضرة كل دقيقة، تفرض عليّ الوجع والألم والفرح والحنين!

ذاكرتي التي تئن وتئن، تأبى أن توقف وميضها المتتالي، شريطًا يسير بسرعة يسترجع كل شيء وكأن روحي توقفت يوم الهجرة الكبرى! أكثر من مائتي يوم مرت علينا، كانوا يقطعون كل يوم جزءًا من النسيج، ينتزعون جزءًا يلقون به وسط العراء، ويعودون لينتزعوا آخر، رنين الكلمات ما تزال في أذني، عند سفح المعبد عام 1960، تهيأ الجميع لسماع الوعود:

أيها الإخوة المواطنون: "ونحن نشعر أن الخير الذي سيعم على أبناء النوبة سيكون الخير الكثير؛ لأنه سيجمع شمل أبناء النوبة جميعًا على أساس من الأسس الصحيحة لبناء مجتمع قوي سليم؛ وبهذا تنتفي الشكوى التي كنتم تشعرون بها طوال السنين الماضية؛ شكوى الانعزال، ثم شكوى تفرقة العائلة الواحدة: أفرادها يعملون في الشمال، وبعضها يعملون في الجنوب!

حينما نبني السد العالي الذى ستغرق مياهه بعض أجزاء أو أجزاء كبيرة من بلادكم، فإننا ننظر إلى مستقبلكم أيضًا؛ لا على أساس تشتيت أبناء النوبة في كل مكان؛ لأن لكم التاريخ الطويل، التاريخ المجيد الذي تشهد عليه هذه الآثار التي سنزورها اليوم، والتي عشتم بقربها آلاف السنين، ولكنا سنعمل أيضًا على جمع شملكم جميعًا، كما كان هذا الشمل يجتمع في هذه المنطقة طوال السنين الماضية أو على مر آلاف السنين!

وأرجو – أيها الإخوة المواطنون – ألا تشعروا بأي قلق بالنسبة للمستقبل، وأنا أشعر أن المستقبل سيكون – بإذن الله – مستقبلًا كريمًا عزيزًا بالنسبة لكم جميعًا".

هتاف وهتاف وتصفيق، حناجر تهتف للزعيم ، والرخاء الذي سيعم، والفرقة التي ستنتهي بلا رجعة! والآلاف يحتشدون يسمعون للميكروفونات التي تحمل صدى صوته الجهوري ينساب عبر أروقة المعبد الكبير!

الوعود كثيرة، والمتاجرة بالأحلام سلعة رائجة، ومن سيحاسبهم إن نكثوا الوعود؟

حلم الزعامة أكبر من أن يوقفه أحد، وهؤلاء الطيبون، سيصدقون بلا شك أن الوطن يحتاج حقًا لتضحياتهم.

تنعكس الأضواء على وجه الملك الجالس يشهد على التاريخ الذي سينحرف هنا انحرافًا هائلًا، التاريخ الذي يسطره المنتصر دومًا!

ونحن قوم لم ننتصر منذ زمن، كنا كذلك عندما كانت الأرض واحدة، ثم توالت الهزائم، تلك الأرض التي ضحينا من أجلها، تنفرط حباتها مجددًا!

شتات أكبر هذه المرة، غربة هائلة، طالت الوطن كله، أرض التاريخ تذهب هباء.

أسير نحو أرضي الآن، علي أجد بعضًا من سكينة ضاعت مني منذ خمسين عامًا!

أسير نحو موضع بيتي، فربما أجد بعض الجدران المنقوشة والقواديس الفارغة بأرض البحيرة العطنة!

أسير نحو أرضي الآن! الآن فقط أشعر بأني سأستريح!

(40)

سويعات عمر هذا الصبي الوليد، سويعات هي أعمارنا، ما بين ضفتي الولادة والموت نعدو كالمجانين، مجانين بعالم أكثر جنونًا، ننهش كالضواري بعضنا لنعيش، نتلذذ بلحوم البشر أكثر من صيد البر والبحر!

البحر؟ آآآه، ليتني لم أعبر البحر رجوعًا لتلك الأرض الثكلى بفقد أبنائها دومًا! ليتني مزقت خطابات أمي قبل أن أقرأها، لم أرد على اتصالاتها المحمومة بالحنين والدموع وكل شجن الأمهات: عد يا أحمد يا بن بشر، الغربة صعبة يا ولدي، وأنا العجوز التي تحتاج لسند آخر العمر!

اتصالاتها لم تنقطع، خمس سنوات لم تفقد أملها في، وأنا الذي فقدت الأمل في عودتي لنفسي.هربت شابًّا، ركبت البحر هربًا من ضيق العيش والأفق وعنصرية

القوم، ذهبت حيث لا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي يتهمك بسواد البشرة، ويكيل لك السباب بلا سبب إلا لأنك مختلف!

يا للقدر، أهرب شابًا تاركًا الأرض خصبة، حُبلى بالخير، وأولي ظهري مغاضبًا، لأعود إليها وقد نفد خيرها؟

ألف رحمة عليك يا أمي، لمَ لم توقفي سيل الدموع لتعيديني؟ نفس الكلام، ونفس الجمل التي بت تكررينها: عد يا أحمد، ابنة خالك تنتظرك، ياما نفسي أشوف ولادك قبل ما أموت.

أحسنت يا أمي ضرب الوتر الحساس، عرقي الذي كان ما يزال ينبض، بعد أن كفرت بالوطن وهربت، لم يتبق غيرك يربطني بأرض لفظتني!

وها أنا أعود، أتزوج التي انتظرتني كثيرًا، ننتظر معًا ذلك الحفيد الذي لم يأت أبدًا! وها أنت يا أمي ترحلين بعد أشهر قليلة تتركين هذا الهارب العائد بقوة الدموع والأمومة والإحساس بالذنب! أحمد بشر الهارب دومًا، المتمرد دومًا، الضائع للأبد. هل سأموت هنا؟ الموت الذي واجهته مرارًا؟

كنت كالنغم الشاذ وسط أُناس يقدسون التقاليد والأعراف، المتمرد الذي لم يفلح أبوه في ترويضه ومات بحسرته، ولم تجدِ دموع أمه في إخماد تلك الجذوة

المشتعلة داخله دومًا! لا شيء يرضيه ولا شيء يعجبه! كفر بتقاليد رآها متحجرة! لم يكره قومه، بل كره خنوعهم للتهميش! رأى الطيبة سذاجة، والتسامح ضعفًا! تتداعى ذكرياته الصغيرة لعقله كلما حاول أن يتقبل الفكرة السخيفة! طفلًا كان حين باغتهم الطوفان الشرس، طفلًا نشأ على فكرة لم تبارح عقله: فكرة الظلم والتهميش!

هرب كالكثيرين حين ضاق الرزق وضاقت الأرض. عبر البحر خلسة، ذهب لأرض ظن أنها سترحب به. صدمته القوانين، فواصل الهروب من أعين الشرطة والترحيل، نام بالشوارع وأكل من القمامة.

تزوج هناك زواجًا أبيض؛ حتى يحصل على إقامة دائمة! لو علمت أمه بذلك وقتها لماتت حسرة! أخفى الأمر عنها، لا أحد يعلم بأمر زيجته تلك، حتى زوجته ابنة خاله لم يصارحها، على كل هو زواج مصلحة لم يدم كثيرًا، عاش حياته هناك يكمل مسلسل تمرده على كل شيء. عرف طريق الحانات والقمار. أدمن الخمر الفاخر بعد أن لذعه العرقي الرخيص، أدمن حياة الحرية، وعاد بدموع أمه، وحلم الطفل الذي أبى أن يأتي!

صراخ الطفل أيقظ حنينه وحنقه على أمه التي أجبرته على العودة، وصراخ زوجة إسماعيل أعاده من شروده للواقع الذي لا مفر منه.

الآن نحن هنا، ضائعون بلا سبيل للنجاة، فهل إلى البحر هناك من سبيل.

ارتمى إسماعيل على الأرض يلهث كمن يتشبث بآخر أنفاس الحياة، لا أدري من أي مكان يندفع هذا الدم الحار الذي صبغ ملابسه وخضب كف زوجته النائحة.

يا الله خرجت من ذهولي على صراخها وصراخ الوليد، غامت عينا إسماعيل وأنا أحاول أن أوقف نزف الدماء المتدفق. يبدو أن الجرح غائر، هل كانت عصابة أخرى من قطاع الطريق؟ هل سكان القرية اعتقدوا أن إسماعيل لص فبادروا بالدفاع عن أنفسهم؟

لا وقت لدي. اقترب السائق متحاملًا، وما يزال جرح رأسه يفقده اتزانه، نهرت زوجته لتصمت وتبتعد.

بحثنا عن مصدر جرحه، جرح كبير أعلى كتفه اليمين، ولكنه ليس بعميق، شققت قميصه وربطت جرحه بإحكام لأوقف الدم المنهمر.

ما العمل الآن؟ الرجل يلتقط أنفاسه بصعوبة، وزوجته تولول فوق رأسي، والمرأة الأخرى لم تفق من ولادتها بعد!

انظر لزوجتي الحيرى مثلي، فتتشبث بعيني علي أجد حلًا لقلقها.

إسماعيل الشاب الطموح الضاحك دومًا، المغامر دومًا، الشهم على الإطلاق، تزوج حديثًا زوجته الصغيرة تلك، ورزقت بمولودها منذ أشهر قليلة. تنوح فوق رأسي ولا سبيل لإسكاتها، تغرب إسماعيل من أجلها. أحبها منذ أن كان طفلًا.

كنت أراه يلعب بين البيوت وهي تتبعه كظله، وهو يحتضنها بعيني طفل بريء، يحاول أن يحميها من سخافات الصبية. يعطيها دومًا دوره باللعب. يجعلها تفوز ليرى ضحكتها الصغيرة الخجلى.

كنت أقترب من سن الشباب، أتسكع كعادتي قبل أن أهرب بعيدًا عبر البحر، أراقب الأطفال اللاهين عن دنياهم بالحجلة والمساكة. أغبطهم وأسرح مع إسماعيل والصغيرة تلك، أتعجب من ذلك الحب البريء الذي ينمو أمامي، من فرحتهم التي بلا سبب، ومن نفوري الذي يحمل ألف سبب.

هربت وغبت ونسيت إسماعيل والأطفال، ثم عدت لأجده شابًّا ما يزال يحملها بقلبه، وهي الجميلة التي لم تعد تلك الصغيرة بضفائرها، عدت لأجدهما ما يزالان على العهد، وأنا الذي ودعت الشباب عائدًا تحت وطأة دموع أمي لأنجب لها حفيدًا أبى أن يأتي.

هل سيموت؟ هل يتخطاني الموت، أنا الكهل الذي لا رجاء مني، وينهش إسماعيل الغارق بدمائه!؟ يا الله! كيف لهذه الروح المسكونة بكل التفاؤل أن ترحل، وأنا المسكون بكل أسباب الرحيل؛ أصر على البقاء؟

شريط حياتي الطويل يمر ببطء الآن أمام عيني، أقارن حياتي المزدحمة بكل التفاصيل والأحداث والوجوه، لأعود بخفي حنين: يدي خاوية، وجعبتي لا تحمل إلا ذاكرتي المشوشة، لا طاقة لمثلي بعبور البحر من جديد، أنا الذي تجاوز الستين بلا ولد أتوكأ على كتفه! أخذت نصيبي من الحياة، اكتفيت من الهروب، ثقلت قدمي وغزا الشيب رأسي، ومثلي يموت الآن بسلام فوق تراب أرضه، ومثل إسماعيل يجب أن يعبر البحر ويجد فرصة للنجاة!

أتذكر حواراتي القصيرة معه، جداله الذي لا ينتهي، وأمله الذي لا ينضب، شاب مفعم بأمل لم أره من قبل، رغم خيباته المتكررة، صفعات وصفعات ولا يزال يقاوم!

تعجبت كثيرًا من إصراره، من تمسكه بذلك الأمل الضئيل، من عودته المفاجئة تاركًا لقمة عيشه بدولة النفط الغزير، من أجل شعارات آمن بها ونصب خيمته هناك وسط كل الجموع، ظل بالميدان يهتف حتى جفت الحلوق، وانهال الرصاص ساخنًا فوق الرؤوس!

كنت أتابع الجموع الغاضبة، الوجوه الشابة! كنت أرى ألف إسماعيل بأمل لم يحدُنا من قبل! أتعجب منهم، وأشفق عليهم، وأتمنى أن أكون معهم، فتمنعني أفكاري العتيقة وخوفي المتراكم، وقلة حيلتي!

كنت أقف مشدوهًا أمام هؤلاء الذين أرادوا التغيير دون خوف، ونحن الذين جبنا ولم نقو على عبور حاجز الخوف.

والآن هل يموت الأمل، وأبقى أنا العاجز عن التغيير. وأي تغيير أرجو؟!ألا ترى يا أحمد الأرض حولك؟ رائحة الموت تنتشر كالعدوى، الأرض المتشققة، والجوع الذي هد الجميع، أي تغيير سيقوى إسماعيل أو غيره عليه؟

الفرصة الوحيدة الآن هي الهروب والنجاة، هل استمعوا لهم سابقًا حتى يسمعوا أنين الجوعى الآن؟

ظلت أبواب القصور موصدة أمام الوجوه! وطوق من الجند يحملون بنادقهم المحشوة يوجهونها لمن يحاول الاقتراب!

الأسوار العالية حجبت صوت الجموع الجائعة، ظلوا هم هناك بحصونهم، وظل القوم يدورون بالشوارع يهتفون: نحن جوعى! لكن دون طائل، حتى خبت أصواتهم الهزيلة المنطلقة من حلوق عطشى!

تعبوا من الهتاف! يشيعون الذين ماتوا جوعًا والأسوار ما تزال تصد رجع نحيبهم، والجند ما يزالون ببنادقهم المنصوبة حول القصور تحميها!

أي تغيير أرجو؟ أنا الذي فقد الأمل في هذه الأرض منذ سنين، هربت لأني كفرت بكل شيء، وعدت لأرى وجوهًا غير التي رحلت وتركتها، شبابًا يقاوم، يهتف ويقف أمام البطش بلا خوف، وأنا الذي جبنت وهربت، وعدت لأتصفح الجرائد وأصدق الحروف المنقوشة فوق صفحاتها منذ ألف عام!

أصدق الترهات المكتوبة عن الرخاء القادم، والدولة التي يتآمر عليها الجميع، وتلك الجموع الغاضبة التي تحاول زعزعة الاستقرار والأمن، صدقت كل هذا!

هاجمت إسماعيل ورفاقه الصامدين تحت النار، درت بالقرية أردد الكلام المطبوع بالحبر الأسود فوق الأوراق الصفراء!

تعجبت من نفسي وخنوعي وقلة حيلتي، وأنا أصدق كل الذي هربت منه شابًّا! رأيت الحقيقة ولم أصدقها، الآن فقط أدركت أنهم كانوا على حق، الآن فقط والموت يطوقنا.

(41)

يتحشرج الموت بصدر إسماعيل، غير مبالٍ بشباب على وشك الرحيل. الزمن توقف هاهنا. وعقلي الذي كان يجوب الماضي وينبش قبور الذكريات تحول فجأة لخردة متهالكة. ومضات الأسى تتسارع حولي بلا فائدة!

عاجز أنا مقطوع وسط أرض قاحلة ميتة متشققة غافلة وباكية، دموع الزوجة لا تنتهي، نحيبها فوق صدر زوجها يصل للسماء، تتفقد قلبه النابض ببطء، وعينه التي تحتضنها وهي تميل لغروب لا شروق بعده! الطفل يصرخ، المرأة تصرخ، زوجتي تصرخ، الأرض العطشى التي تتشرب الدماء تصرخ، وأنا الصامت الوحيد وسط كل هذا، المذهول وسط كل هذا، السارح بلا تركيز، الشيخ الذي توارت شجاعته خلف قضبان العجز!

يخرج صوتي المكتوم هواء من بين ضلوعي المكبلة، صوت واهن، صرخة كادت تخرج ما لبث أن اعتراها هي الأخرى خوف بلا مبرر!

ما لهذا الخوف الذي يكبلنا نحن الشيوخ؟ ما لهذه الجرأة التي سكنت القبور قبلنا؟ كيف نجحوا بملئنا بخوف مزمن، خوف معدٍ، خوف لا مفر منه!

نجح إسماعيل ورفاقه في هزم الخوف! كسروا كل القيود وحاربوا الكبار حتى لا تجوع الأرض.

نجح الكبار بالهرب. ودهَس العسكر الزهور تحت الدبابات المجنزرة!

والآن يموت من تبقى منهم على الطريق؛ نحو هروب لا مفر منه، هروب جائع هزيل، هروب وحيد خائف، هروب بلا معين.

تكاد الصرخة تنطلق من حنجرتي الصدئة، حنجرتي التي ظلت صامتة أربعين عامًا، احتلها الخوف بلا منازع، وطوقتها أحكامهم العرفية الجائرة، فاجتاحها العرقي والنبيذ ليسكتها للأبد، وغيب عقلي الخانع هناك يتلوى تحت تأثير خمر الخوف، وسُكر الرغبة في هروب آمن!

فأين الأمان الآن والكل يحاول الفرار نحو مجهول لا بد منه؟

ليتني تبعت الشيخ صالحًا نحو الجنوب! كنت واهمًا أعتقد أن الشمال الرغد سينقذنا، فأين المفر؟!

(42)

بيووووو، بيووووو! سهم يخترق أذني الصماء، عقلي الصلد وقلبي المفعم بالخوف!

أفيق من الذهول. أعدو صوب الطريق الترابي الموحش، والشمس تلسع رأسي، وتستحث العرق فيسيل فوق الجبهة المثقلة بالحاضر الأسود!

أعدو ناحية الطريق الخالي، المتعب من كثرة الهاربين فوقه نحو الشمال والجنوب، المتخبطين مثلنا، الفارين مثلنا، الضائعين مثلنا!

أشير للسيارات القليلة التي تمر مسرعة غير مبالية.

سحابة الغبار تغطينا وسحائب الخوف تملأ نفوسنا. الكل يعبر دون أن ينظر صوبنا، الكل يهرب، يرتدي أقنعة خوفه ويهرب، الكل ينظر أمامه صوب طريق النجاة، لا أحد يلتفت إلينا، لا أحد يريد أن يتوقف!

أصرخ: يا هووووو، يا عالم، يا ناس، يا أهل، يا وطن!

يا لفزع الشيخ حين تداهمه قلة الحيلة والعجز. الشباب يموت، الوطن يموت، الأرض تموت، وأنا لا أملك سوى يد تشير للعابرين غير المبالين بي، وصراخ يملأ الأفق بلا جدوى!

أعود للملقى على الأرض الجاحدة، تغيم عيناه، وتتحشرج آخر كلماته، يدور بعينيه فينا، وقد اصفر وجهه، وعلت ابتسامة هادئة شفتيه الباهتتين!

حتى وأنت ترحل يا إسماعيل تبتسم!؟ يتمتم بآخر كلمات وداعه، يودع الوطن الجاحد والأرض القاسية! يودع أمله في الغد، يودع زوجة ملتاعة، وطفلًا لا يعلم من مصيره شيئًا!

يغلق عينيه في هدوء بلا صخب، يرحل بلا ضجيج، تصمت الثورة ويهدأ العنفوان، تذهب الأحلام بلا عودة، يسكن الجسد الذي حمل الحجارة ووقف أمام الدبابة!

أبكي بلا توقف، سيل من الدموع وسط هذا القحط، أعتذر وأعتذر، أجثو أمام الجسد الملقى وأعتذر، أعتذر عن حماقاتي، عن خوفي، عن خنوعي، عن غيبوبة عشتها طيلة عمري!

أهرب من المواجهة بالهروب، أعتذر عن ترهات صدقتها، عن أكاذيب روجت لها، عن حياة كان يجب أن أدفع أنا ثمن اعوجاجها لا هذا الشاب الجميل الملقى بلا حراك!

اعتذارات متأخرة، اعتذارات جيل بأكمله وددت لو قبلها مني! فنحن من فرّط، وهو من دفع الثمن! آسف أيها النقي، البسيط، الحالم، المناضل!

تحت الثرى ينام إسماعيل الآن، هانئًا بحياة لا وجع بها، فوق التراب نعدو نحن نحو مجهول لا مناص منه، حفرنا اللحد وأسكناه بيته الأزلي!

نحو مجهول نمضي! نشير للسيارات العابرة علها تتوقف، نقف على الطريق كالموتى نستند على بعضنا، على هزالنا وخيباتنا، نتفحص الوجوه العابرة، نستنطق شهامة كنا نحسبها ماتزال موجودة!

نصرخ طويلًا، تتوقف سيارة مسرعة بعد تردد، يساومنا السائق على الأجرة، نجمع ما تبقى من قروشنا المتبقية بعد غارة قطاع الطرق، ننحشر مجددًا!

تنهب السيارة الأرض القاحلة، نحو الشمال نمضي، وحيدًا أنا ونسوة يتكئن على شيخ مهزوز مثلي! ثم ماذا؟ هل سأعبر البحر مجددًا؟

(43)

لم أنم جيدًا منذ خمسين سنة! نومي كان معركتي الكبرى التي خسرتها على الدوام. يأتيني النوم بعد عناء ساعات من الانتظار أقضيها متقلبًا في الفراش، أترك الغرفة الساخنة ومروحة السقف التي تزأر فوق رأسي، أهرب للحوش، أتمدد فوق المصطبة ووجهي نحو السماء!

حفظت كل النوم المرصوصة كحبات الماس، تلمع قليلًا ثم تسكن، السماء هنا كالسماء هناك، كسماء العالم كله، قطعة من الأمنيات البعيدة، الكل يحدق نظره نحوها، أرسلت إليها أمنياتي الصغيرة منذ سنوات طويلة.

عندما تمددت هناك فوق ظهر غرفتي بجوار محمود، تمنيت أن أكبر سريعًا لأتزوج فضيلة، بعدها رحنا في سبات عميق، كان النوم صديقًا حتى في شبابي، كان يأتي مسرعًا تحمله موجات النيل، ثم تنثره ذرًّا بعيوننا.

بعدت عن النيل فأرقتني الليالي، أستجدي النوم فيأتي على مهل محملًا بكوابيس لا تنتهي:

وجه أبي في اللحد، فضيلة وحسين يغرقان في الطوفان ولا أجدهما، المئذنة تغوص والنداء يصدع: الله أكبر!

أفيق ألف مرة على عرقي المتساقط، أسكب الماء فوق رأسي، وأبل ريقي وأعود لنومي المشوب بالهلاوس، يشق الفجر سواد الليل وأنا على حالي، أقوم لأصلي الفجر وأقرأ وردي وأدعو لأبي وأمي، أستعيذ من شيطاني الرجيم الذي يوسوس لي كل ليلة!

ألم يتعب من خمسين عامًا ينفث الغضب بجنباتي كل ليلة؟

ينتابني الأسى والحزن والغيظ، وجع لا ينتهي، حانق أنا رغم هدوئي المصطنع، محمود كان كالقنبلة ينفجر في وجه الجميع، يخرج غضبه بلا خوف، يسافر ليتمرد ويحتد، ويلعن الحكومة بعقر دارها!

أما أنا فكنت كاللغم، لا أحد يعرف متى سأنفجر! كنت أعذب نفسي كل ليلة بكوابيسي وغضبي المكتوم بداخلي، أكتوي وحدي.

تتحسس فضيلة كل يوم موضع نومي البارد منذ الرحيل، لتجدني أهذي فوق المصطبة قبيل الفجر، أختزن الحزن، وألوكه على مهل، أتذرع بالصبر والرضا بالقدر، وأعلم أنه بداخلي طوفانًا كهذا الذي ابتلع الأرض!

ترى هل سيأتيني النوم عندما تطأ قدمي أرض الجنوب؟ هل لأرض الوطن رائحة؟ أشعر بأن الجو تغير، الصحراء أصبحت أقل خشونة، والشمس – رغم وهجها – لم تعد تصفع وجوهنا بقسوة، كلما سار بنا الدليل جنوبًا داهمني الحنين أكثر.

الريح تحمل عبق الوطن وترسله إلى عقلي المزدحم بالماضي والحاضر، كلما خطوت بقدمي المتعبة نحو الجنوب، تنقشع سحابات التعب رويدًا. أغوص بجسدي كله في ذكريات لا تنتهي.

تلمح فضيلة بقايا ابتسامات على وجهي المرهق، فتبتسم هي الأخرى، تُرى، هل سرت لها عدوى الذاكرة، أم تتوسم خيرًا في ابتسامة غابت عن وجهي منذ رحيل محمود؟

مسكينة يا فضيلة، أمضيت عقودًا عديدة تقاسمين رجلًا مهمومًا، غامضًا حياته القلقة! رأيت عينيك وقت التهجير، كانت سحائب الدموع تغطي مقلتيك، ولكنها لم تكن تنهمر، دموعك توقفت عند أطراف أهدابك وأبت أن تنزلق احترامًا لمشهد الوداع!

كنت دومًا قوية، حتى حين كنا صغارًا نلهو وسط غابات النخل وقرب النهر، كنت الأشجع رغم حداثة سنك، تنبح الكلاب السائبة فنعدو إلاك، يهيج النهر وتعلو موجاته فنهرب، وتظلين واقفة تحدقين كحورية تشتاق للماء!

كنا نسميك عروس النيل! كنت أمازحك دومًا: سألقي بك للنيل وأتزوج أجمل منك! فتردين بقوة ودلال: لن تجد يا صالح أجمل مني.

نعم يا فضيلة، لن أجد أجمل منك، ولا أقوى منك لتتحملي نصف الثائر، ونصف الهادئ، ونصف المحارب، الذي أحب الأرض ولم يسعه أن يفعل شيئًا سوى الرحيل الصامت! ليتني كنت كمحمود، ثائرًا ومحاربًا وصاخبًا، فلا تزوريني الكوابيس، ولا أدمن الأرق خمسين عامًا.

ما الذي فعله النهر بنا، نحن أبناؤه، فلم يعذبنا؟ غرق وشتات وجفاف وشتات آخر!؟ كلنا أحب النهر بطريقته، أنا ناضلت بإيماني الشديد بالقدر، علمت أن الله عادل، ولكني غفلت عن ظلم البشر!

غلطتي أني صدقت الوعود، حذرني محمود كثيرًا، تنبه للأمر مبكرًا جدًا، عاجلني بالواقع وصب الأسئلة فوق رأسي، حرت ولم أجد جوابًا، الشكوك أضحت

واقعًا، والوعود ظلت وعودًا، والأرض لم تعوض، والنيل جف وذهب بلا رجعة، ونحن الآن نحبو خلفه مهرولين كاليتامى نبحث عن عائل وأب جديد.

(44)

ترى هل ما يلوح من بعيد بقايا الماء الجاثم فوق بيوتنا؟ أم سراب سيتبدد عندما نقترب لنجده محض خيال ووهمًا، وانعكاس الشمس الحارقة تلهب ظهر الأرض؟

أقترب من الدليل أستفسر، مد بصره ويده باتجاه الجنوب، نعم يا والدي تلك البحيرة، هناك على مرمى البصر، سنصلها قريبًا.

نعم كنت أعلم، تلك الرائحة التي تسري في الجو ليست برائحة الصحارى، تلك النسمات التي استقبلتني ليست بغريبة، هذي الأرض التي نقترب منها تعرفنا جيدًا، تتأهب لدوس أقدامنا، تستعد لترتمي بحضن فارقها عشرات السنين، ها قد اقتربت من نفسي أخيرًا، صالح الذي تركته هنا ورحلت، نومي المتقطع، كوابيسي المزمنة، ذاكرتي المشحونة بالوجع!

آن الوقت لأرمي كل شيء فوق الأرض هنا، أستعيد ليالي بلا أرق وقلق، بلا هواجس الغرق والطوفان والبيت المتصدع!

أسترجع ذاكرتي الفتية بلا أوجاع وألم وفراق! أعود لأتلمس بقايا الجدران النائمة تحت الماء، ساقيتي العفية وشادوفًا كنت أرفع به الماء، ربما أجد بعضًا منه تحت الطين يرقد، رفات أبي، ووجه جدي، وشواشي النخل تطل علي تستبطئ مجيئي! أعتذر لها، وأربت فوق جُمارها اليابس فيستحيل غضًّا بين يدي! أغرس الفسيلة تلو الأخرى، فتتحول الأرض العطنة لمزارع نخيل أثقلها البلح فتساقط رُطبًا!

أميل لأجمع الرطب فتنهشني التماسيح الزاحفة من قلب البحيرة!

أنتفض من نومي مفزوعًا وفضيلة تبسمل، وعليّ يغني أو ينوح:

مشتاقين يا ناس للبيت
لنبع الحبايب
لبلاد النخيل والغيط
هيعود اللي غايب
مشتاقين يا ناس لبلاد الدهب
كبر الشوق جوه القلب
كان لسه في حضني الحب.. خدنا ومشينا
والأيام خدتنا
رحلة وعودة
نادرين لما نرجع تاني

لبلاد الجمال رباني
جوه البيت هنزرع نخلة
تطرح خير وتعمل ضلة
والعصافير تلقط غلة
في الحوش الكبير والرملة
جار الساقية في العصرية
نحكى حكاوي
والأفراح هتملى الناحية
ويا غناوي
مشتاقين يا ناس
هيبيبه
الله يجازيكي يا غربة
الله يجازيك يا فراق

(45)

الأرض عطشى كما هي روحي المثقلة بتسعين عامًا من الحكايا. مزيج من حكايا الجدة الممزوجة بالأساطير ودرس التاريخ المعجون بالأرقام والأشخاص!

جدتي السمحة دومًا، المبتسمة دومًا، الحكيمة دائمًا! كانت ترد على سؤالي الملح: من أين يأتي ذاك الثائر النجاشي؟

بفطرة ترد، بإيمان ترد، بابتسامة ترد، بلكنتها النوبية القوية المخارج والعربية المتكسرة الحروف ترد:

النيل لم يخلق مثلنا، نحن طين وروح، وهو الروح التي تحمل الخير، يأتي من هناك!

دومًا كانت تلك الهناك تحيرني، وددت لو أعرف كنهها!

لم أسأل، لم تتجاوز يومًا أسئلتي هذا الحد! كنت أراها تبتسم بحنو، وكأنها تعرف السر ولا تريد البوح، وكأن الهناك ستر وسر ولغز يعرفه الكبار فقط، ألم يُخلقوا مع النيل؟!

أقف عند الشط أنظر لهناك، أتتبع المسارات المتعرجة لذاك الراكض بلا هوادة، أحاول اكتشاف المنبع، أسأل أبي، فينظر للجنوب ويبتسم ابتسامة جدتي المحيرة، والهناك الأكثر حيرة:

– بلاد كَتيرة يا ولدي بعدنا، هناك، هناك!

وأنا المأخوذ بهذا الجريان الذي لا يتوقف، بهذا الهدير الصاخب، والموج المتلاطم، والشمندورة الغارقة بالمنتصف تتراقص مع الموج وتلمع تحت قرص

الشمس، بالبواخر كالجبال تشق المجرى، فيرتفع الموج ناحية أقدامنا الصغيرة الواقفة عند الشط!

نلوح للوجوه البيضاء النازلة صوب المعبد، فيردون مبتسمين بقبعاتهم العجيبة، ووجوه نسائهم التي لا تشبه أمي، وخالتي، وفضيلة، ونسوة النجع المتشحات بالسواد!

يعلو صوتي بالكلمة التي تعلمتها فوق دكة الدرس: ويلكم welcome يا خواجة!

يضيع صوتي وسط هدير المحركات العملاقة، وأود لو قفزت للماء أتعلق بذلك الجبل النازل للجنوب، علّي أكتشف هذا الهناك المحير!

ولم أكن أعلم أني سأرحل صوبه بعد كل تلك السنين.

(46)

الأفق يتغير، الوجوه تتغير، الأرض بدأت تتغير، ما الذي يجعل الشمال قاسيًا هكذا؟ ما هذه الوجوه المتربة المتعبة الحانقة واللاهثة؟ ما هذا الزحام والفوضى والعرق الممزوج برائحة الموت الشمالي العنصري؟

ما الذي دفعني لهنا، غير مبال بتحذيرات الشيخ صالح الصامتة؟ ما الذي دفعني للشمال مجددًا!؟

أحاول استرجاع ماضٍ ولى منذ عشرين عامًا! وقتها كنت شابًّا، والهروب وقتها كان سهلًا، أما الآن!

الآن ماذا؟ لا شيء، الآن مجرد وهم، خدعة، ذرات ريح تسير نحو الفناء، وأرض تهوى بسرعة نحو فناء أكبر، وهوام تحاول الهروب فتلسعها نار أشعلها الكبار، الذين هربوا يحملون خير الشمال والجنوب، فوق أجنحة الطائرات التي لم تكف عن الأزيز!

هربوا نحو شمال أكثر عنصرية! هربوا نحو المصالح والمال والسلطة التي تحمي الأموال، والأموال التي تحمي السلطة! هربوا، تركوا الهوام تحملهم ريح سموم نحو أي مكان بعيدٍ عنهم!

ليس مهمًّا، المهم أنهم نجوا، وتركوا الجنوب يئن، والشمال يتصارع، والأرض حيرى، ونحن نهرب، والكل جائع، والنوبة تغرق بلا ثمن!

توقف السائق أخيرًا، بين الوجوه المتعبة توقف، تطرق عيونهم زجاج السيارات العابرة، عيون كعيوننا: خائفة، غائرة، محفورة بجماجم بشرية كانت في وجوه

حائرة، تائهة مثلنا، تتأمل القادمين إليهم وترحل، تتوه وسط الزحام العطن الخانق، المحمل بذرات الموت، وروائح بقايا ماء آسن، وقمامة تنبشها عيون وجماجم أخرى أكثر جوعًا.

العاصمة الثرية الفقيرة، المكتظة، المتناقضة!

ما هذا الجحيم؟ ما هذه الأرض؟ ما هذه النهاية السوداء؟ العسكر ببنادقهم يدورون وسط الوجوه، يصرخون، ينهالون بالضرب على بقايا الآدميين، يبعدونهم عن الأسوار العالية المحصنة الخاوية، التي هرب أصحابها!

تركوا الجنود الذين تشبه وجوههم وجوهنا، وجوعهم يشبه جوعًا يفترسنا، تركوهم حول السور والقصر والثكنة، يحمون ما تبقى من مصالحهم!

واهم أيها الجندي العبيط، مسكين يا من تصوب بارودك بوجهي، أنت هالك مثلي يا مغفل! كف عن ضربي، عن إذلالي!

ألا ترى أنك جائع، خائف مثلي!؟

دع القوم ينهبون قصور الأغنياء، دع أقدامهم تطأ جنة الغنى قبل أن يموتوا، دع عيونهم المنطفئ بريقها، دعها تدور تتفحص الذهب يكسو الأرض والجدران المحصنة!

غافل أنت يا صديق، كلنا كنا غافلين!

نحو الأتوبيسات المكتظة بالراحلين نتجه، أتوبيسات متهالكة بائسة مثلنا، هناك استطعت أن أجد زوجًا جميلة، احتضنها والصغير الوليد، عيون خائفة تربت على عيون أكثر خوفًا!

يا إلهي، كلنا أجساد راعشة، وقلوب واجفة تحاول أن يطمئن بعضها بعضًا بلا جدوى. داخل الأتوبيس المكتظ ببقايا البشر الفارين من موت حتمي إلى موت محتمل ونجاة ضئيلة!

في الأتوبيسات الممتلئة بالأجساد البالية، بأسمال بالية، بقلوب بالية، بأحلام بالية! في الأتوبيس انحشرنا، مئات الأتوبيسات تزمجر، يملأ العادم الجو الخانق، الكل يتدافع، نقف محشورين، تنهرس أجسادنا، يعلو صياح الأطفال المذعورين، نستغفر، نحوقل، نتضرع، ندعو حينًا، نلعن الأرض، والنيل الذي جف، والكبار الذين فرطوا، والصحف والشاشات التي أوهمتنا بأن كل شيء (تمام)!

العيون التي لا تملك ثمن الرحيل تتكوم هناك، تحاول الركوب، الهراوات تفتك بهم، تزيحهم، يصرخون، يتكومون، يعاودون استجداء القلوب الصلبة بلا فائدة!

يهتز الأتوبيس، يتحرك صوب البحر، آخر الآمال، ربما ننجو، ربما نغرق، ربما نعبر، ربما نموت، ربما نصحو من هذا الكابوس المزعج، ليته حلم طويل بلا معنى.

ساعات قليلة ونصل، الليل لفنا، لم تعد نرى شيئًا سوى أنوار متقطعة لسيارات هاربة مثلنا. يتوقف الاهتزاز بعد بضع ساعات، السائق بصوته الأجش يأمرنا بالنزول!

رائحة البحر تصل لأنوفنا، الليل ما يزال يشمل كل شيء، الظلمة تلفنا، وعتمة ثقيلة، متربصة ومرعبة!

تتشبث بي زوجتي المفزوعة، نتكوم حيث نزلنا من الحافلة، فوق رمال الشاطئ الرطبة نريح أجسادنا المتعبة، ننتظر الصباح عله يأتي بفرج.

(46)

يتوقف الحادي عن ترانيمه، يتوقف صف الإبل الطويل الملتوي، يترجل البدوي في المقدمة من فوق بعيره، الصوت يعلو في المقدمة، انتبه لعبارات تصل مسامعي:

يا ساتر، يا ساتر، يا ساتر، الله أكبر!

أعدو ناحية الصوت، بين الصخور الناتئة أراه، والدماء تغطي وجهه ورائحة العفن تصل إلينا، الغربان تنعق فوق الجثة والذئاب متربصة، هربت صوب الجبل مع طلقات البنادق، طعنات تتخلل جسده، والفزع مرسوم فوق الوجه المنتفخ!

أصرخ صرخة مكتومة، برعي، برعي.

الرجال يتجمعون، مشاعري متخبطة، كنت أعتقد أني سأفرح بموته، وددت لو طعنته أنا تلك الطعنات الغائرة!

ما هذا الشعور بالأسى من أجله، أذكر نفسي، وأحاول أن أظهر بعض الجلد، نعم هذا برعي الذي غدر بك، سرقك هو وأمه واستغل حاجتك، ليعود ليسرقك مجددًا ويتركك وحيدًا وسط الصحراء القاحلة!

ولكنه الموت، الذي نقف أمامه عاجزين، أمام سطوته التي تفرض علينا الحزن! لم أتمالك دموعي، سقطت بلا شعور، مسحتها بطرف جلبابي قبل أن يلحظوا!

انتبه الأعرابي، سألني إن كنت أعرفه، هززت رأسي بالنفي! ما الداعي لشماتة لن تفيد!

حفرنا قبرًا، وأهلنا عليه التراب، غدر بي، فغدر به الدليل، والآن ربما يحاسب على كل شيء! كل شيء.

(47)

لم يكف الموج عن ضرب الشاطئ، أنعشنا الرذاذ المتطاير يضرب وجوهنا، أنعشتنا رائحة البحر وسط تلك العتمة الثقيلة!

ابتسمت لأول مرة منذ أيام، انتابني بعض أمل في صبح ربما يأتي بفرج قريب، أخذني وسن اجتزت البحر فيه، نجونا أخيرًا، هناك أراني ألوح على الجانب الآخر ألوح، لهؤلاء البؤساء الجوعى!

أصرخ فيهم علهم يعبرون مثلي! صوت الموج يعلو والنوارس تصرخ فوق رأسي، أفتح عيني مفزوعًا على فجر يشق الظلام الثقيل، والآلاف يفترشون الرمال

الرطبة مثلنا، ولا شيء في الأفق إلا الأمواج تضرب الصخور المتآكلة، والجوعى يتساقطون حولي، بلا زوارق نجاة ولا شاطئ بعيد نصل إليه.

(48)

نستكمل المسير، وبرعي الآن يرقد وسط الصحراء – تحت الرمال الساخنة – مطعونًا بلا رحمة، جيفة متعفنة لا يملك أن يلحق الأذي بي أو بغيري!

عاد الحادي يترنم بأبيات شعره، والعير تشتد طواعية وراءه، والطريق يميل بنا نحو سلاسل جبال شاهقة! الجلبة تعلو رويدًا، على مرمى البصر المشهد يتغير!

يقترب البدوي مني، ويهمس: لن نستطيع أن نقترب أكثر من ذلك، خذ صاحبك والله يسهل طريقك!

حسنين يترجل من فوق الجمل، يستند على كتفي، نتجه نحو العالم الخفي، عالم الذهب والجبل والمعدات التي تصرخ، صوت البارود يعلو ونحن نسير صوب المجهول!

الحادي يستأنف ترانيمه، والعير تبتعد، والأعرابي الطيب يلوح لنا وعيناه مشفقة، وبداخلي ألف سؤال: هل سننجو؟

(49)

صوب الهناك نتجه، بعد تسعين عامًا، سأكتشف السر الذي أخفته الجدة، الذي دهشت عندما رأيته مرسومًا بخريطة العالم؛ يوم أن فاجأنا الأستاذ حين صباح بعيد بعيد:

نشر الخارطة الورقية فوق الحائط الجيري الأبيض، أشار بعصاه نحو المساحة الزرقاء، قائلًا: من هنا من تلك النقطة يولد النهر.

تبادلت النظرات مع محمود! شيء من الحماس والتحدي والرهان، كنت أؤمن أن الهناك لا وجود له، وكان محمود ينعتني بالأبله، كنت خياليًّا وكان عمليًّا!

أحببت النهر بقلبي وأحبه بعقله، أردنا أن نذهب للمنبع عندما أغلقوا عيون السد بوجهه الهادر، أردنا أن نراه وهو يغضب ويثور من أجلنا.

اعتقدنا أنه سيغضب ويفيض، يفيض ليغرق الشمال الأناني! لم نتخيل أنه سيغضب ويولي دبره بلا رجعة!

سأتجه صوبه الآن لأعتذر، أغتسل، أقف عند الشط أتلو دعواتي المسكونة بجسدي من خمسين عامًا، سأحمل جلباب محمود، وأقذفه بالنهر الهادر، سأجعل رائحته التي لا تزال بملابسه تمتزج بطمي النيل، عل روحه المتعبة تستكين أخيرًا.

هانحن نقترب، الأرض تتلون الآن، الرمال الصفراء تنحسر رويدًا، الطمي العالق بأقدامنا يخبرنا بأننا اقتربنا!

الأرض الواطئة تظهر على مرمى البصر، الأرض الواطئة المملوءة بماء أخضر عطن، الأرض الواطئة الجاثمة فوق بيوتنا، فوق المئذنة والساقية والشادوف، فوق دكة الدرس، الأرض الواطئة التي كانت أرضي!

التماسيح تتصارع من أجل البقاء، ندور بحذر مبتعدين، الأسماك النافقة تملأ المكان، ما هذا الموت الجماعي؟ الموت القادم بسرعة، الموت المحير الذي تحالف مع الجميع ضدنا:

ضد النهر تحالفوا، ضد الأرض تحالفوا، ونحن ندفع الثمن دومًا، ندور وندور حول البحيرة الساكنة بلا ماء وبلا حياة!

تهمس الأرض لي: أنا هنا يا صالح، أدوس برفق فوقها، هنا يرقد أبي وجدي وجدتي الطيبة المبتسمة دومًا الحكيمة دومًا، أعتذر وأعتذر!

ألقي السلام عليهم: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون! لاحقون بالتأكيد.. ربما قريبًا جدًّا.. ربما اليوم!

أتلو الآيات في سكون، أتمتم بدعائي الذي حرمت من تلاوته فوق قبر أبي، أتحسس مفتاح بيتنا المعلق حول رقبتي، وصية أبي!

لم أنزعه كل هذه السنين، أفك الخيط الآن، أقف عند الطرف، وأطوح به بعيدًا ليستقر بقاع البحيرة العطنة، حيث بيتي هناك يعود!

تشهق فضيلة وتبكي، تدور عيناها تبحث عن بيتها الغارق، ونخلات أبيها، تسري عدوى الحزن بيننا! تنتشر ببطء، تتغلغل داخلنا، تستحوذ على قلبي!

قلبي يحدثني أنه قريب من هنا. مشاعري تؤكد لي، غارت البحيرة الفسيحة، لتنكشف أصول قريتنا، مسارات أحلف أنها كانت لنا في طفولتنا المحفورة في الخلايا.

بيتنا هنا! في هذه النقطة بالذات. إحساسي لا يخطئ، هنا لعبت أنا ومحمود وفضيلة وبقية أقراني! هنا.. هنا.. إحساسي لا يخيب.

هل الحزن يقتل؟ هل الشوق يميت؟ هل الحنين يهلك صاحبه؟

تثقل قدمي، تتباطأ خطواتي، يرتعش جسدي، أستند على كتف حسين، أتمايل، تميد الأرض بي، أسقط عند حافة البحيرة، عند موقع بيتي أسقط!

يأتيني محمود مبتسمًا، يأتيني أبي مبتسمًا، تأتي الجدة الطيبة الحكيمة مبتسمة، يأتي شيخ الكتاب ومعلم الفصل، وبائع الدكان!

الجميع مبتسمون، وأنا هناك بينهم، طفلًا بجلباب مقلم، وطاقية عليها جمال باركة، ومحمود الصغير الشقي، وفضيلة بضفائر مجدولة، ونحن بين مجموعات النخل نعدو. عند شط النيل نقف، والأشرعة البيضاء تعبر، والشمندورة تتراقص وسط المجرى العميق، والموج يداعب أقدامنا الصغيرة المنغرسة بحذر في وحل الشط الطيني. الساقية تدور وعيناي تغيمان!

قلبي يتباطأ كمن كان يجري طيلة عمرة وأراد الراحة هنا! جسدي أحب تلك الأرض كما لم يحب، أراه مرتاحًا الآن!

ممدد أنا وفضيلة تسح دموعها، تشعر أني أود الرحيل، ترجوني البقاء، وأنا بين عالمي وعالمهم أصارع رغبتي البرزخية!

المبتسمون يدعونني، وفضيلة وحسين يتمسكان ببقائي! أي بقاء والكل رحل؟ أي بقاء وها قد عدت الآن لأرضي؟

أما آن لي أن أستريح هنا؟ أن أدفن هنا؟ أن يغوص جسدي بجوار أبي وجدي؟

ألا تفهمون أني قطعت كل هذا الطريق لأستريح؟ هنا الراحة، هنا فقط!

راحل أنا، الكل سيرحل يا فضيلة، ألا تعلمين؟

إنها سنة الله، رحل أبي وأبوك والجميع! رحل الصديق، رحل محمود، لا فائدة من التمسك بمالكٍ مثلي، شيخ قاوم حتى وصل التسعين!

حتى النيل رحل، ذاك العنيد رحل، فكيف لي بالبقاء!

فقط لا تطيلي البقاء هناك حيث الزوال، لا تتركيني تحت الأرض وحيدًا، سأنتظرك كل صباح، الكل هناك مبتسم، حتى محمود، لقد برئت قدمه، عاد شابًّا ضاحكًا كما كان دومًا!

سأنتظر يا فضيلة، فلتكملوا المسير؛ علكم تجدون بعض الراحة التي لم أجدها!

فلتكملوا المسير، فقط احفروا قبري هنا عند الحافة، عند البيت، عند النوبة الغارقة.

فضيلة الباكية تحمل جلباب صالح الأبيض، تستند على كتف حسين، صوب الجنوب يتجهون، صوب الحدود المضروبة، والأسلاك الواقفة بوجه العابرين يتجهون!

(50)

البنادق مشرعة في وجه القادمين، والوجوه الصارمة المتجهمة؛ رغم أنها مثل وجوهنا؛ أبنوسية، نوبية، طيبة من داخلها، لكن تغلفها أوامر من قساة القلوب!

الآلاف يفترشون الأرض الجدباء، الحديث الهامس يدور بينهم، الحديث الصاخب يعلو، الأمل يهتز ويرتعش ويخبو، الساعات تمر، والأيام تتوالى، الخيام تضرب أوتادها بالأرض، خيمة ومائة وألف، مجتمع الخيام! مجتمع اللاجئين العالقين عند الحدود المغلقة بوجه الشقيق، المشرعة على اتساعها بوجه العدو!

على الجانب الآخر، يجري النيل المحاصر، النيل الهادر، النيل الغريب، النيل الذي يرتفع فوق ضفتيه علم بنجمة سداسية.

(51)

يا بِت العرب النوبية
يا بت النوبة العربية
وأنا عارفك ممكونة وصابرة..
لكن لي ناس إلاّ تصيحي

جواي مأساتك مغروسة..

يا طفلة تفتش في باكر

ما بينات نخلة وأبنوسة

الجوع العطش الفَدْ واحدْ..

الفقر الضّارب زي سوسة

الخوف والحالة المنحوسة

يا بحر الحاصِلْ..

لاكْ ناشِفْ..

لا قلمي الفي إيدي عصا موسى

الشاعر محمد حسن سالم حِمّيد

الرواية والراوية:

دافو (الرحيل) رواية تعيش عذابات النوبة وأهلها، وشتاتهم، وتكرر الظلم الواقع عليهم، واضطرارهم للتخلي عن جغرافيتهم وتاريخهم وملامحهم لأجل مطامع الشمال الجاحد وألاعيبه!

والرواية هي الأديبة القاصة البديعة الدفاقة د. نهى جميل الحاج الأستاذة في تحليل النفس البشرية، والإبحار في أطوائها، ولمس مواجعها وجراحها.

عازفة بالكلمات، مايسترو في الصياغات، روائية ذات اقتدار لغوي وحكائي لافت، وبراعة في شد قارئها إلى منمنماتها الإنسانية، وتفاصيل انفعالات النفس البشرية، من خلال انحيازها للبسطاء، والمظلومين، والموجوعين، والمهمشين! تغرس بها قيمًا، وتستزرع أخلاقًا، وتعيش هموم الإنسان؛ فقط لأنه إنسان!

ع. ب